14 me Année No. 697

Lundi — 11 — 11 — 1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٦٩٧ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٧ ذو الحجة سنة ١٣٦٥ — ١١ نوفمبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

لغـــة عالميـــة . . .

للأســـتاذ عباس محمود العقاد

تجدد فى هذه الأيام نشاط الدعاة العالميين إلى تعميم لغة واحدة بين أمم الحضارة ، لتصبح فى يوم من الأيام لغة النوع الإنسانى كله ، أو لتصبح — على الأقل — لغة إضافية يتفاهم بها أبناء الأمم جميعاً إلى جانب لغاتهم القومية ، إذا تعذر الاتفاق على لغة واحدة تغنى عن جميع اللغات.

وهذه الدعوة تتجدد فى أيام الدعوة إلى السلام ، وهى أرفع ماتكون صوتاً وأبعدما تكون صدى فى أعقاب الحروب العالمية ؛ لأن الناس يشعرون فى هذه الأوقات بعواقب التفرق والانقسام ، ويستمعون إلى كل نصيحة يرجون منها منع الحروب وتقريب الشقة بين بنى الإنسان ، فى اللغة والعقيدة والعصبية القومية

ومن تقديرات هؤلاء الدعاة أن التفاهم بلغة واحدة يقضى على سبب من أسباب سوء التفاهم بين الأمم ، فلا يقع بينها هذا التنافر الذى يثير الفتنة وينفخ فى نيران العداوة ، ويفرق الناس شيعاً فى القلوب كما تفرقوا شيعاً فى الألسنة واللغات

ومن البديه أنهم يقدرون إمكان النجاح فى هذه المحاولة ، ولا يسلكونها فى عداد المستحيلات الممتنعة على جميع المحاولات

ونشاطهم اليوم أقوى من نشاطهم فى السنوات الماضية ، فقد شهدوا أمم العالم تجمع مندوبيها فى صعيد واحد ، وقد بلغوا فى عهد عصبة الأمم المنحلة أن تعترف العصبة (سنة ١٩٢٧) بأشهر اللغات العالمية وهى « الاسبرانتو » التى سمعنا عنها كثيراً فى البلاد العربية . فإذا بلغوا فى عهد الأمم المتحدة أن يتكلم المندوبون بهذه اللغة ، أو يتكلم أحدهم بها ويفهمه بعض زملائه ، فهى خطوة مفلحة فى سبيل التعميم ، وقد تتبعها خطوات تشترك فيها الحكومات وتنتظم فيها الشعوب

فالمجلات التى كانت تطبع بلغة الاسبرانتو ثم احتجبت فى السنوات الماضية تعود الآن إلى الظهور ، والمجلات التى ضاق نطاق انتشارها توسّع هذا النطاق جهد ما تستطيع ، ولا تكتفى الجماعات الدولية بمطبوعات هذه اللغة فتعقد الاتفاقات بينها وبين المجلات المشهورة على تخصيص أقسام منها لتعليم « الاسبرانتو » ونشر المترجمات إلى هذه اللغة مع أقسام المجلة الأخرى التى تنشر بلغتها القومية ، وتتوالى الدعوات إلى عقد المؤتمرات السنوية كما كانت تنعقد منذ أربعين سنة بغير انقطاع فيما عدا أيام الحروب . وقد كانت للاسبرانتو مؤتمرات سنوية شهدها أربعة آلاف مندوب من أرجاء العالم فى بعض السنين ، ولهم أمل فى ازدياد هذا العدد خلال السنوات المقبلة ، ولهم أمل أهم من ذلك وأجدى على اللغة بين أمم الحضارة ، وهو أن يظفر كتاب أدبى من كتب الاسبرانتو بجائزة « نوبل » أو بجائزة من قبيلها ، ولا يسمحون

بترجمة بعد ذلك إلا إذا اقترنت الترجمة بنصوص الكتاب الأصيل

ومما لا شك فيه أن الاتفاق على لغة عالية إضافية مفيد فى عالم السياسة والمال ، ومفيد فى السياحات والمقابلات بين الغرباء .

ولا شك كذلك فى سهولة الاسبرانتو على المتعلم بالقياس إلى جميع اللغات التى عرفت إلى الآن ، لأن كلمات اللغة تكتب كما تنطق ، وقواعد النحو فيها قليلة لا يعرض لها شذوذ ، ولا يعسر على قارئ من القراء أن يحفظ جذورها جميعاً وأن يتصرف فى الاشتقاق منها على حسب القواعد المعدودة بغير مشقة وبغير حاجة إلى مراجعة ، فهى أيسر لغة على المتعلم بلا خلاف

ولكن الشك كل الشك فى الأساسين اللذين يقوم عليهما بناء اللغة والرجاء فى جدواها ، وهما إمكان التعميم ومنع الخلاف بهذا التعميم

فموضع الخطأ الأكبر فى تقدير هؤلاء الدعاة حسبانهم أن اللغة وسيلة تفاهم وكفى ، ولا شأن لها قبل ذاك ولا بعد ذاك .

والواقع كما نشهده أن اللغة « كائن عضوى » يمتزج بكيان الأمم فى ماضيها وحاضرها ، ومستودع حيوى لما يجيش فى نفوسها وعقولها من فكر وأمل وعاطفة واعتقاد

ومهما يبلغ من إنصاف الدعاة الشغوفين بالسلام وتوحيد الشعوب ، فلن يستأصلوا من نفوسهم تميز جنس على جنس ولسان على لسان ، وآية ذلك أنهم قصروا جذور اللغة العالمية على مصادر اللغة اللاتينية ومشتقاتها ، فليس فيها حساب للعرب مثلا ولا لأهل فارس أو الهند أو الصين

وبحسبهم لو استطاعوا أن يلحظوا اللغات كافة فى جذور لغتهم لما ضمنوا بذلك توحد اللغة ، ودوام التوحد فيها مائة سنة متوالية ، ولا نقول بضع مئات

وتاريخ اللغة العالمية شاهد على ذلك يغنينا عن ترقب حكم المستقبل البعيد أو القريب

فقد ظهرت أول لغة عالية فى سنة ١٨٧٩ قبل إعلان الاسبرانتو بنحو تسع سنوات

وقد وضع تلك اللغة قس ألمانى يسمى شلير Schleyer وأطلق عليها اسم « الفولبك » Volpuk منحوتاً من كلمات انجليزية وجرمانية معناها لغة العالم

فلم تمض سنة ١٨٨٧ حتى أعلن الدكتور زمنهوف Zamenhof الروسى لغة عالية أخرى هى لغة « الاسبرانتو » التى كان لها من الذيوع فى أوربة وأمريكا أوفى نصيب

ولم تمض سنة ١٩٠٠ حتى رأى بعض أنصار الاسبرانتو أنها محتاجة إلى تعديل ، وأدخلوا عليها هذا التعديل فى النطق والهجاء فعرفت باسم لغة « الأيدو » ido ، وهى الكلمة التى وقع بها مقترح التعديل اسمه عند جمع الأصوات،

وحاول أصدقاء الفريقين أن يرأبوا الصدع بينهما ، فاقترحوا توحيد اللهجتين باسم « الاسبرانتيدو » ispirantido تركيباً مزجياً من الاثنتين ، فلم يفلحوا فى التوفيق ، وأسفرت المحاولة فى أقل من أربعين سنة عن ثلاث لغات أضيفت إلى اللغات المتفرقة ، فزادت ولم تنقص بمحاولة التوحيد

ويحدث هذا فى كل محاولة يراد بها جمع البشر كافة إلى لغة واحدة أو عقيدة واحدة أو تفكير واحد ، وشواهد ذلك عندنا فى الشرق المعروف ، وفى العصر القريب

فالباب قد أراد فى القرن الماضى أن يفسر الكتب الدينية تفسيراً يقبله المسلمون والمسيحيون واليهود ويجمع به الأديان الثلاثة إلى كلمة واحدة ينحسم فيها الخلاف ، فلم يمض على دعوته عمر رجل واحد حتى كانت « البابية » نفسها ثلاث شعب لا تدين واحدة منها بأمامة الشعبة الأخرى ، فلم تتوحد العقائد بل زادت عقيدتين مع الدين الجديد .

وحاول القاديانى فى الهند مثل هذه المحاولة فلم يسلم الروح حتى أصبح الأحمديون شعبتين متنازعتين تدين إحداهما بنبوة الإمام وتنكر الأخرى عليه النبوة وتنعته بلقب الاجتهاد والأمامة وافترق أتباعه قبل أن يوحدوا الأديان . وقد تنقسم الفرقة إلى فرق والشعبة إلى شعب . دون أن يتحقق القصد الذى نزعوا إليه .

والاسبرانتو على هذا القياس ستصبح لغات ولهجات قبل أن تتفق على لغة واحدة إلى جانب اللغات القومية . أما أن تزول هذه اللغات القومية جميعا فذلك تقدير بعيد ، بل جد بعيد .

***

والخطأ فى التقدير الآخر أن نرجع بأسباب الحروب إلى تعدد اللغات ، وأن نعتقد أن توحيد اللغة تزيل تلك الأسباب ،

من أحاديث الإذاعة :

شهيد العيــــد . . . !

للأســــتاذ على الطنطاوى

كلفتنى محطة الشرق الأدنى أن أكتب قصة لتذاع عنى أولَّ يوم من عيد الأضحى ، وهذا هو العيد قد حلَّ حلَّت عليكم فيه البركات والخيرات ، ولـكن القصة لم تكتب ... إن لها قصة يا سادة ، فاسمعوا قصتها ...

* * *

أنا رجل من طبعه التأجيل والتسويف ، أؤخر الأمر ما دام فى الأجل فسحة ، وأرجئه إلى آخر لحظة منه ، ثم أقوم كالمجنون أنطّ[1] قافزاً مثل الأرنب الذى زعم (أخونا ...) لافونتين أنه نام حتى سبقته السلحفاة ، وإن لم أكن قد رأيت فى عمرى سلحفاة تسبق أرنباً ...

فلما ورد علىَّ كتاب المحطة نظرت فإذا بينى وبين موعد الأذاعة أمد طويل فاطمأننت ونمت ، حتى إذا كانت ليلة العيد ، ولم يبق أمامى إلا ساعات معدودة أكتب فيها القصة وألحق بها البريد الجوى ، أخـذت قلمى وصحيفتى لأكتب فسدَّت علىَّ أبواب القول ومنافذه وكواه ... وعدت مرتجاً علىَّ محبوساً لسانى كأنى ما مارست الـكتابة قط ، وكذلك نفس الأديب يا سادة تتفتح تفتُّح الينبوع الدفاق ، ثم تشحّ شحّ الصخرة الصماء ما تبض بقطرة ماء ، ولـكن الناس لا يصدقون ذلك : إنهم يحسبون الـكاتب يخرج المقال من نفسه كما يخرج التاجر البضاعة من دكانه ، لا يدرون أن هذا الـكلام يجىء أحياناً حتى ما يقدر الأديب على ردّه ، ويعزب حيناً حتى لايلقاه ، وأنه يعلو ويصفو وينزل ويتعكر ، وما عجزت الليلة عيًّا ولا فهاهة ، فأنا أكتب فى الصحف من عشرين سنة ، ولـكن الـكتابة بالأجرة

(١) نط فى الأرض : ذهب .

أو يزيل سبباً قوياً منها إن لم يُزل جميع الأسباب .

فان الحروب التى وقعت بين أبناء اللغة الواحدة لا تقل عن الحروب التى وقعت بين أبناء اللغات المختلفة ، وأمثلة ذلك ظاهرة فى تواريخ الرومان واليونان والعرب والصقالبة والجرمان والانجليز ، وأبناء الهند والصين .

ونحن إذا رجعنا إلى الحروب بين أبنـاء اللغات المتعددة لم نستطع أن نردها جميعاً إلى انقطاع التفاهم بين أمة منها وأمة ، أو بين زعماء الأمة الذين يقودونها إلى الحرب وزعماء الأمم التى يحاربونها . فربما فهم كل فريق منهم ما يريده الآخر ووقعت الحرب بينهم لأنهم « يفهمون » لا لأنهم لا يفهمون .

فإذا خطر لنا أن تعميم « الاسبرانتو » يعمم الوفاق ويقضى على أسباب الشقاق فليس فى حوادث الـماضى ولا فى حوادث الحاضر ما يعزز هذا الخاطر بدليل .

وغاية مايرجى من تعميم لغة إضافية بين أبناء النوع الانسانى أن تتيسر بينهم المعاملات ويستفيد العارفون بتلك اللغـة من سهولة قواعدها فينقلون تلك القواعـد شيئاً فشيئاً إلى لغاتهم القومية التى تحتاج إلى تعديل .

أما امتناع الحروب فليس سبيله توحيد الـكلام ، بل توحيد البواعث التى يعبر عنها الـكلام ، وتوحيد هذه البواعث مستطاع فى ناحية واحدة على وجه التقريب لا على وجه الشمول والاطلاق ، وهذه الناحية هى ناحية المثل العليا للأخلاق والقيم والأقدار

فإذا أعجب الناس بفضيلة واحـدة واشمأزوا من رذيلة واحدة وتـكلموا بألف لغة فذلك أدعى إلى التقارب بينهم من لغة واحدة يتكلمونها وليس بينهم وفاق فى مواطن الاستحسان والاستنكار ، وليس لهم مقياس واحد يقيسون به أعمال الدول والرجال .

وآية ذلك أن اتجاه الناس إلى وحدة المقاييس الخلقية يطرد فى مراحل التقدم والحضارة ، ولم يكن تفرقهم فى مذاهب اللغة والرأى مناقضاً لاتجاه التقدم والحضارة فى عصر من العصور .

عباس محمود العقاد

يبيع وشراء ، ولكل مبيع ثمن ، وأنا أحب أن أنتصف وأنصف الناس من نفسي ، لذلك رأيتني كلما سقطت على موضوع وزنته فوجدته لا يساوي الثمن الذي تدفعه لي المحطة ، فتركته وفتشت عن أغلى ، وكلما خطرت لي فكرة طمحت إلى أعلى ، حتى كاد يمضي الوقت ولم أصنع شيئاً ، ونزل بي ما نزل بالأستاذ توفيق الحكيم لما كلفوه أن يضع حواراً للفلم وجعلوا له جعلا ضخماً ، لحصر فيه فكره ، وحشد له قواه ، وفرّ لأجله من داره . ثم انتهى به الأمر أن ألّف كتاب (الحمار) ولم يضع الحوار .

عند ذلك أيست ولبست ثيابي ، وهربت إلى الأسواق .

* * *

جلت في الأسواق ، وأسواق دمشق ليلة العيد كأنها المحشر ، قد أوقدت فيها المصابيح ، وفتحت المخازن ، وانتشر الباعة ، وتدفق عليها أهل البلد والفلاحون ، بالأزياء المختلفة واللغات المتباينات ، وكل بائع ينادي برفيع صوته ، وكل مشتر يصيح ، وكل مجتاز يتكلم ، والبضائع معروضات من كل مأكول وملبوس ومفروش ومنظور ومشموم ، وكل يريد أن يعدّ الليلة عدته للعيد فيشتري فيها طعامه ولباسه ...

وكنت أسير في هذا الزحام شارد الذهن ، نازح الفكر ، أعمل عقلي في هذه القصة ... التي وعدت بها المحطة ، فأعلنت عنها وبشرت بها ، ثم لم أستطع أن أكتبها ، حتى وصلت إلى (باب المصلى[1]) ؛ فإذا أنا بحشد عظيم من الناس قد احتشد حيال دكان ، فدفعني الفضول إلى معرفة الخبر ، فأقبلت أدفع الناس بكتفي ، وأشق طريق بيديّ كلتيهما وأطأ أعقاب الناس وأقدامهم ، وأصغي إلى هذا الفيض العجيب من ... النثر الفني .. الذي جادت به قرائحهم ، فتدفق عليّ من ألسنتهم ، حتى بلغت المشهد ، ونظرت ...

* * *

نظرت ، فرأيت اثنين يختصمان ويعتركان ، أما أحدهما فكان مسكيناً قميئاً أعزل عاجزاً ، وأما الآخر فكان ضخماً طوالا كالح الوجه ، مفتول العضل ، وسخ الثوب ، قد حمل سكيناً في يده طويلة النصل ، حديدة الشفرة ، وهجم بها على صاحبه والناس ينظرون ولا ينكرون ، وصاحبه المسكين يصرخ ويتلفت تلفت المذعور ، يطلب الغوث فلا يغيثه أحد ، ويبتغي المهرب فيسد عليه الناس طريق الهرب ...

وإني لأفكر ماذا أصنع ... وإذا بالخبيث العاتي يذبحه والله أمامنا ذبحاً ، ويتركه يتخبط بدمه ، ويوليه ظهره ويمضي إلى دكانه متمهلا ، فيعالج فيها شأنه على عادته ، كأنه لم يرتكب جرما ، ولم يأت الأمر النكر جهاراً !

وكدت أهجم عليه ، وأسلمه إلى الشُّرَط . ثم ذكرت أن الشجاعة في مثل هذا الموطن تهور وحماقة ، وأن المجرم بيده السكين لا يمنعه شيء أن يحَاُ بها من يريده بشرّ ، وطمعت أن يتحرك أحد الواقفين فيقدم عليه فأتبعه وأشد أزره ، فلا والله ما تحرك أحد منهم ، ولا جَرُؤ على ذلك ؛ بل لقد تكلم واحد منهم ، فلما رفع القاتل رأسه ونظر إليه رأيته يجزع منه ويفزع ، ويقول له بصوت مضطرب متلجلج : « الله يسلّم يديك » !

وحرت ماذا أعمل : أأبلغ الشرطة ، أو أدعهم وأمضي إلى داري لا عليّ ولا لي ؟ ثم رأيت أن خير ما أفعل أن أكتب وصف ما رأيت ، وأبعث به ليذاع ويعرفه الناس .

* * *

وها أنذا أتهم هذا الرجل بالقتل ، وأدعو الحكومة إلى القبض عليه حتى يعاقب ويكون عبرة لمن يعتبر . ولا يحسبن أحد أنه فرّ ، أو أن القصة متخيلة أو مكذوبة ، أو أنها من أساطير الأولين ، أو من أخبار العصور الخوالي ، فالقاتل موجود في دكانه ، يغدو إليها ويروح إلى بيته ، والقصة صحيحة رأيتها بعيني رأسي وأنا سالم العقل غير مجنون ولا معتوه ، متيقظ غير نائم ولا حالم ، صاح غير مخدّر ولا سكران ، ثم أني رأيتها الليلة البارحة !

* * *

هذه هي الحادثة الفظيعة التي كتب الله أن تكون هي موضوع قصتي التي فكرت فيها وأطلت التفكير فكيف رآها الناس فلم يحفلوا بها ولم يأبهوا لها ؟ أفسدت الأخلاق ، وضاعت

---

(١) حي في أول (ميدان) الحصى في دمشق ، كان فيه مصلى العيد ، لما كان الناس يعرفون السنة فيصلون العيدين فيه لا في المساجد .

المروءات حتى لا ننكر الأمر النُّكُر ، أم خارت العزائم ، وانخلعت القلوب حتى لا نجرؤ على المجرم الظالم ؟ وهل نامت الحكومة فى الشام نومة أهل الكهف حتى ما تدرى بالدم يسيل فى شارع من أكبر شوارع دمشق ؟

لقد سكت الجميع ، حتى أن أنسباء القتيل قد ناموا عن دمه ، وقعدوا عن الثأر له ، ولم يتقدم أحد منهم شاكياً ولا مدعياً لأن القاتل كما قالوا ، عازم على ذبحهم كلهم إن قدر عليهم ، وماضيه حافل بأمثال هذه الجرائم .

فما سرّ هذا السكوت ؟

لقد علمت السرّ بعدُ يا سادة ...

ذلك أن المسكين الشهيد كان خروفاً من خرفان الضحية ، وأن القاتل كان جزّار الحارة ، وأن الناس شاركوه فى جرمه . فأكلوا لحم الذبيح مشوياً ومقلياً ومطهياً ، وأكلت معهم ونسيت من طيب اللحم هذا الشهد ...

هذه هى سنة الحياة ، يموت المسكين لنستمتع نحن بأكلة طيبة . فكلوا منه أنتم أيضاً هنيئاً ، واشربوا عليه مريئاً ، واشتغلوا بالأكل عن مطالبتى بالقصة ، وكل عام وأنتم بخير !

علي الطنطاوي

الذى عطل الدين

للأستاذ عبد المنعم خلاف

ما رأيت شيئاً أضر الحياة وأضر الدين وحال دون شيوعه فى الناس مثل ما عطله الإيغال فيه والاستغراق فى معانيه حتى يصير بعيداً عن متناول عقول أكثر الناس ومتناول جهدهم المحدود وإحساسهم بالحياة ... ! وينبغى لقواد الاجتماع ألا يخطوا خطوة عامة فى رحاب الفكر الاجتماعى إلا وهم مقدرون أن جمهور الإنسانية يستطيع أن يخطوها وراءهم.

وقد كان نتيجة ذلك الإيغال أن حياة أكثر الناس انفصلت عن حياة الدين واتجهت إلى مجرى المادية الصماء — وهو المجرى الظاهرى وحده — من غير أن يصحبها الروح السامى الذى يليق بعظمة تفرعاتها المادية وتشقيقاتها .

ولو أن الدين نُظر إليه على أنه موقف لازم من مواقف الحياة كالأكل والنوم والرياضة والعلم الخ ... وساير حياة المجتمع ، وفُهم على أنه « ركن مادى » فيها لا بد أن تقوم عليه كما تقوم على غيره من دعاماتها كالقانون وحفظ الأمن مثلا ، ولم تلتصق به نزعات التصوف والانطلاق الشعرى المُغْرِقَيْن ، وتصور موقف الإنسان فيه موقف الفناء والإنكار لنزعات المادية التى تستلزمها الحياة بالجسد ، والخروج من الدنيا بالسهر والجوع والزهد واستمراء الآلام قبل الخروج منها بالموت ... إذاً لسارت الحياة الإنسانية فى تناسق بين جانبيها الروحى والمادى .

ولو علمنا أن الحياة صادقة أصدق من تلك النزعات الشاذة التى تجلت فى أفراد من المتشائمين ، من كل من طلق الدنيا ألماً منها أو زهداً فى لذاتها ، لتغير الموقف العام ، فإن الحياة الإنسانية فى مجراها العام أخذت الإنسانية كلها ، ونقلتها إلى رحاب الكرامات والتسلط والتسخير عن طريق العلوم الموضوعية ومكارم الأخلاق العملية لا الاستغراقات الذاتية الضيقة.

ولا يغرنّنا من شذوذ كل أولئك الصوفيين المغرقين ما تركوه من كلام شعرى مزوّق جميل فى طيوف وأشباح وأصداء لوجداناتهم المحرومة الوالهة التى تركت طرق الحياة الواضحة ، وأرادت أن تدرك الله الأعلى بعقولها المحدودة ، فكانت النتيجة الحتمية لذلك المطلب هى بلبلة الخاطر وخفاء البيان واضطراب السير ...

إن الحياة المادية العلمية الظاهرة هى الحَكَم لصالح حياة الجماعة ، وهى الأفق الأول الذى أراد الله العظيم أن تتجلى فيه أسرارنا ونتائج خلقتنا ، ونتائج جهادنا فيها نتائج دائمة ثابتة ، يراها أطفالنا وجهالنا كما يراها علماؤنا وفلاسفتنا .

وأنا مؤمن بالإنسانية ذات المنطق الواقعى المستمد من الطبيعة ، ناشدٌ كمالها عن طريق تكميل سيطرتها على الطبيعة وإدراكها للنفس إدراكاً علمياً وتحكمها فى العمل تحكماً صالحاً .

ومن الذى سار وراء الشذاذ من الصوفية والمتشائمين وأخذ أخذهم فى الحياة ؟ إنهم أقل عدد ، ومن صالح الأرض أن يكون

ذلك كذلك ، إذ لو طاوعهم الناس لعطلت الأعمال فى الأرض ، ولم تتحقق الأعمال البارعة التى للانسان فى المادة وأسرار الحياة

* * *

غير أن الإنسانية إن كانت طبيعية بسيرها هكذا فقد أساءت بإهمال جانب الروح فيها باعتباره دعامة أساسية فى الحياة ذلك الإهمال الشنيع .

وربما يكون ذلك الأمر محتملا فى العصور السالفة ، عصور القصور والطفولة ، ولكن الآن يجب أن تدرك أنها بلغت دوراً لا يصح أن تسكت فيه على إهمال الجانب الروحى فى حياتها باعتبار أنه « ركن حيوى » ودعامة نظامية لحياتها المادية ذاتها ، والحمد لله قد تحول كثير من أحلام الروحيين القدماء إلى أخلاق عملية عامة .

والتصوف بمعناه العملىّ شىء سام عظيم فى رياضة الخلق وتطبيع الأعصاب على السمو والخير وإيقاظ الضمير ، ولكنه بمعناه الشعرى الذى نراه فى شعر بعض القوم ليس أخلاقاً ، وإنما هو أحلام وتأملات مستغرقة حادّة للخلاص من الجسد لرؤية الحقيقة العظمى والخروج من نطاق الأرض لرؤية ماوراءها ، وهؤلاء قد لا يهتمون بالأعمال والأخلاق كالحلاج وغيره ؛ فواجب أن ننظر إليهم لا كرجال دين يسنون طرقا ليسير الناس عليها ، وإنما كشعراء استهوتهم المعانى الدينية فأسرفوا فيها ، واستغرقوا وانطلق وجدانهم فيها كما استغرق أبو نواس فى الخمر وبشار فى الملذات الحسية ...

وقد ينظر إلى معانيهم على أنها انطلاقات فى « فن الدين » أو موسيقى فى جوه ليست ذات محصول ... وقد ينظر إليهم رجل الدين العالم العملى على أنهم صناع أحلام استهوتهم إلى غير الطريق الجلى . وكل فتح عظيم لهم وتستطيع الإنسانية أن تنتفع به ينتهى إلى « صواب الأحكام » عن طريق البيان ؛ لأنهم أطالوا التأمل وأدمنوا تقليب النظر فى وجوه الأشياء المختلفة . وهذا لا يتيسر لكثير غيرهم .

ولم يأت وصف لله تعالى على لسان أى مخلوق بما يخرج عن نطاق عمله تعالى وصفاته المثلة فى الطبيعة التى تدرك بالقوى الواعية وبالحواس .

نعم قد تشرق عليهم لمات من الأذواق الغريبة عن الحياة ومن المشاهد الغيبية ، ولكن لا يستطيعون إظهارها ، لأنها يضيق عنها نطاق النطق كما يقرر الغزالى .

وإنى ما قرأت بيان صوفى إلا وجدته خيالا شعرياً جميلا ، إن كان صاحبه قدرياً ، ورديئاً إن كان صاحبه قاصراً كليل الذهن ، وكثيراً ما أظفر بمثله من بيان أهل الدنيا السائرين على ظاهرها .

* * *

وتظهر قيمة القرآن العظيم حين أراه يأخذ المجتمع كله بمنطق وسط صالح للجماعات ، وحين أراه كتاب العدل والاتزان والاعتراف بالحياة المادية والحياة الروحية كأساس واحد لازم للحياة الانسانية .

والعمل هو روحه ، لا الأمانى الشعرية ، ولا الأغانى الدينية ولا التماس « حسن التعليل » ولا الأماديح التى تتملق ويتهرب بها صاحبها أو يتشفع بها ويعتذر فى مسئولية إهمال الأعمال ، كتلك المعاذير التى يتخذها الناس مع رؤسائهم الدنيويين .

والثواب والجنة الحسية والحسنى والرضا والرحمة والاحترام والخير لذى الخير هى من أدواته كذلك فى الدعوة ومجازاة الفضائل والطبائع الكريمة لأنها منطق الغرائز الصالحة والأخلاق المثلى . وكل أخلاق القرآن هى أخلاق أبناء الحياة بجزءيها العاجل والآجل ، الصالحين لعمارة الأولى ونموها والعاملين لحيازة الأخرى والرفعة والرفاهة الخالصة فيها .

وكل عقائد القرآن واضحة مأخوذة من منطق الانفصال بين الإنسان والله تعالى ؛ فلا حلول ولا وحدة ولا اتحاد ، وبين الله والطبيعة ، ومن موقف الخلافة فى الأرض خلافة واسعة والتدخل فى شئونها جميعاً ، لا التقليل من شأنها والهرب من مجابهة فتنتها كدار امتحان وكفاح وابتلاء . موقف الاعتراف بقيمة الجسد الإنسانى وسمو الروح الإنسانى ووجوب الجمع بينهما لصلاح الحياة والفكر .

فلنَدِنْ لله بالحياة ، ولنتعبد بها هى ذاتها ، ولنتخذ منطقنا من سننها التى لا تتبدل وحقائقها التى لا تلتوى ، لأنها منطق الله ربنا وربها ، وما عرفنا الله إلا منها . فكيف نهملها ؟ وكيف نجهلها أو نجهل عليها ؟ فيها قِوامنا ، ومنها دينُنا ! .

ولنَعْرض أقوال الرجال على موازينها قبل الأخذ بها في تسليم وغرور ... ولنحذر أن نعكس الأمر فنعرض أمر موازينها على أقوال الرجال ، فإن أقوال الرجال متغيرة متناقضة وأقوالها هي ثابتة لا تتبدل !

ولكل عقل موهوب الحق في الاتصال بها والاحتكاك بقوانينها ليكون من وراء ذلك اتصال مباشر بعقل الوجود ، وقلب الطبيعة ... !

وقد صارت الحياة تغزو بصدقها قلب الإنسان وتستهويه وتبعده عن الخوف والوجل من القرب منها ، وجعلت أبناءها المجاهدين الشجعان هم السادة ، وتركت الفارين منها في خوف ووجل يئنون تحت أثقالها وهم يحسبون أن أنينهم هذا شعر ونشيد وحكمة ... ! وما ظفر فيها بالحق إلا من أحسّ بها وتقرب إليها وبَعُد عن أساطير الأولين من المرضى والفارين الذين حرموا من الإحساس بعنفوان شبابها يفيض في كيانهم ...

عبد المنعم خلاف

علوم البلاغة في الجامعة

للأستاذ علي العماري

— ٤ —

انتهينا في المقال السابق من مناقشة آراء الأستاذ الخولي فيما يتعلق بعلم البيان ، وقد أغضينا عن أشياء استكثرنا على علم الأستاذ وفضله أن تكون من آرائه وتوجيهاته ، فنحن هنا لا ننقد إلا ما يتأكد عندنا أنه من رأيه بمراجعة النسخ المختلفة لمذكرات الطلاب ، أو بأن يشيع الرأي في فصل من الفصول فيتكرر فيه مرات . ولقد عملنا بالحكمة المأثورة « ما استقصى كريم قط » فأنكرنا بعضاً وأعرضنا عن بعض . وحديثنا اليوم عن آرائه في باب القصر ، وهذا باب تعرض منه لثورة عنيفة فناله من خرابها شر مستطير ، نرى من الحتم علينا أن ننصفه ، وأن نرد إليه كرامته ، فإن مسائل العلم لها عند دارسيها كرامة تعلو على كرامة عظماء الرجال ، والأستاذ بدأ أولا فرق هذا الباب إرباً إرباً ، ورمى بكل شلو منه في ناحية . فذهب بقطعة إلى علم النحو ، ومضى بثانية إلى علم البيان ، أما سائره فأبقاه في علم المعاني ولكن بعد أن هاض جناحه ، وتحيّف أطرافه . ورأيه أن القصر الجدير بأن يبحث عنه البلاغي هو القصر الادعائي ، أما القصر الذي يعبر عن الواقع فيجب أن يبقى في علم النحو لأنه يؤدي به أصل المعنى المراد فقط ، والبلاغي إنما تعنيه المعاني الثابتة ، وهي المعاني التي يومئ إليها الكلام وراء المعنى الأصلي : « القصر صيغة من صيغ التعبير العربية التي يحتاج إليها في أداء المعاني الأصلية ، وتأتي المرحلة الثانية وهي أن القصر الحقيقي ما دام حقيقياً بمعنى أنه مطابق للواقع فهو مرحلة لا تتجاوز أصل المعنى وصحته ؛ أي أن معناه النحوي هو دائماً معناه الوحيد ولا يخرج عنه إلى أغراض أخرى . أما القصر الادعائي فبخلاف ذلك له وراء المعنى الأول لصيغة القصر معانٍ أخرى يرمى إليها المتكلم ومن أجلها لجأ إلى هذا الادعاء فأسقط من حسابه كل شيء غير المتكلم فيه وأثبت المعنى الذي عنده له » .

ثم يقول : « القصر الادعائي إذا توسعنا قليلا في فهمه وتطبيقه فإننا نستطيع نقله من باب المعاني إلى أسلوب من أساليب التعبير الأدبي . فلا نقصر المسألة على البحث اللفظي والدلالة على جزء المعنى الذي هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال . إذن نخرج من باب القصر بأسلوب يدخل في البيان لا في المعاني » ، ويؤكد هذا الرأي في موضع آخر : « القصر عندي معنى نحوي لا بلاغي ، أي أنه من الصيغ العربية لازم لصحة المعنى لا لحسنه ؛ فهو يساق لتقوية المعنى لا لجماله ، وأنه لا احتراز فيه ولا نفي فيكون معناه أنه تعبير قوي . يتلخص من هذا أن للقصر استعمالات ثلاثاً :

١ — القصر طريق من طرق التعبير العربي فهو صيغة نحوية لأصل المعنى .

٢ — القصر صنيع بلاغي قوي لتقوية المعنى .

٣ — القصر أسلوب من الأساليب البيانية » .

هذا كلامه . ولإنارة هذه المسألة نقول : إن بعض العلماء يرى أن مباحث النحو يجب أن تفصل عن مباحث البلاغة ، والحد الفاصل بينهما أن البلاغي لا بد أن يكون له ملحظ وراء المعنى الأصلي ، فإذا لم يكن له غرض من الكلام غير أداء المعنى

الأصلى فلا يدخل أداؤه فى مباحث البلاغـة . مثال ذلك ذكر المسند إليه ، فانه إذا قامت قرينة تجوّز حذفه كان المتكلم بالخيار بين أن يذكره أو يحذفه ، والحال هو الذى يرجح عنده أحدهما فالشاعر الذى يقول :

بالله يا ظبيات القلاع قلن لنا   ليلاى منكن أم ليلى من البشر

كانت له مندوحة أن يحذف المسند إليه (ليلى) ولكنه آثر ذكره بعد دلالة القرينة عليه لو حذف لغرض فى نفسه ، فاذا لم تكن قرينة تدل عليه إن حذف كان الذكر واجباً ، وحينئذ لا يعلل هذا الذكر بغرض بلاغى وهكذا .

على هذا الضوء ننظر فيما ذهب إليه الأستاذ الخولى فنرى أنه غفل عن أمور أربعة حين رأى أن بعض القصر يجب أن يبعد عن دائرة البلاغة ، ويبقى فى مباحث علم النحو :

١ — فأصل الجملة الواحدة فى العربية أن تؤدى حكماً واحداً مقصوداً لا تتعداه سواء أكانت حقيقة أو مجازاً ، وغالباً مايتبع هذا الحكم غرض يسمونه وأمثاله مستتبعات التراكيب ، وهذه الأغراض هى التى يلاحظها المتكلم ويقصدها من كلامه . فاذا أدت الجملة حكمين مختلفين خرجت عن أصل الجمل العربية ، وكان هذا الاختصار من المقاصد التى يلجأ إليها المتكلم ، وهو مقصد وراء الأداء الأصلى . يقول الشاعر :

وليس أخى من ودّنى رأى عينه
ولكن أخى من ودنى وهو غائب

فنجد هذا المعنى أدى على طبيعة الجملة ، فاذا أردت أن تسوقه فى أسلوب مختصر قلت : ما أخى إلا من ودنى وهو غائب ، فتلجأ إلى القصر لغرض الاختصار .

٢ — من المعروف لدى كل من يشدو شيئاً من علوم البلاغة أن القصر فى كل حالاته يفيد التوكيد والتقوية ، والأستاذ لايخالف فى هذا ولا ينفيه بل يذكره فى غير موضع من مذكراته ويراه أدل على إفادة التوكيد من الاختصاص فيقول إن ما نعبد إلا إياك آكد من إياك نعبد ، وبدهى أن التوكيد ليس غرضاً أول بل هو من أوليات الأغراض البلاغية .

ولهذين الأمرين المتقدمين لم يعدّ العلماء من أدوات القصر الألفاظ التى تدل عليه من مثل اختصر وقصر وما إلى ذلك ؛ فمثل قوله تعالى والله يختص برحمته من يشاء ، وقوله : حور مقصورات فى الخيام لا يعد من القصر ؛ لأن الجملة لم تؤد غير معنى واحد مقصود ولا اختصار فيها ؛ فلا يرتبون شيئاً من أحكام القصر على هذه الألفاظ ، ولذلك نحن لا نرى رأى أستاذنا الشيخ سليمان نوار حين يرى أنه يجب أن نعد من القصر كل أسلوب ينحدر منه الذهن إلى معنى القصر وإن لم توجد أداة من أدواته المعروفة ، ويعرف القصر بأنه دلالة جملة واحدة على اختصاص أمر بآخر سواء كان منشأ تلك الدلالة الوضع أم العقل أم الذوق فيشمل نحو :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبه الدم

ونحو :

أرونى أمـــة بلغت مناها   بغير العلم أو حدّ اليمانى

ثم يعجب قائلا « لماذا يجعلون شبه ومشبها من صيغ التشبيه ولا يجعلون نحو اختص من صيغ القصر » وأظن الفرق واضحاً بين دلالة شبه على التشبيه ودلالة اختص على القصر الذى رتبوا عليه الأحكام البلاغية الكثيرة ؛ والذوق شاهد عدل فى هذا . فأين قولك قصرتك على الشعر من قولك : إنما أنت شاعر ؟ وكذلك لم يجعلوا من صيغ القصر الاستثناء التام المثبت لأنه يؤدى معناه الأصلى لاغير . قال صاحب الأطول : « إذ الاستثناء من الإيجاد ليس القصد فيه إلى الحصر بل إلى تصحيح الحكم الإيجابى ، فهو بمنزلة تقييد طرف الحكم ؛ فكما أن جاءنى الرجال العلماء ليس قصراً كذلك جاءنى الرجال إلا الجهال ليس قصراً بخلاف نحو ماجاءنى إلا زيد ، فان المقصود منه قصر الحكم على زيد لا تحصيل الحكم فقط وإلا لقيل جاءنى زيد »

ونحن نريد أن نبسط القول فى أدوات القصر لنقطع كل حجة على من يتهم العلماء بأنهم ضيقوا دائرته ، وأنهم غفلوا عن مزاياه ، وأنهم وضعوا فى علوم البلاغة ما كان يجب أن يوضع فى علم النحو ، وسنقتصر على الطرق الأربعة التى ذكرها الخطيب القزوينى فى الإيضاح وهو الكتاب الذى يشرحه الأستاذ فى الجامعة ويعلق عليه .

« التقديم » قد كفانا الأستاذ مؤونة القول فى هذا الطريق

وأنه لا يؤدى به أصل المعنى فحسب بقوله : « أما التقديم فمادام الأصل فيه التأخير أى أن الحالة الطارئة هى التقديم فلا يكون إلا لملحظ بلاغى » .

« العطف » ومن المسلم به عند العلماء والذى لا يعارض الأستاذ فيه أن هـذا الطريق لا يؤدى به إلا القصر الإضافى ، وأنه « لرد السامع عن الخطأ فى الحكم إلى الصواب » وهذه عبارته ، وطبيعة القصر الإضافى تقتضى ذلك فهو إما لبيان خطأ المخاطب فى اعتقاد الشركة بين الأمرين أو فى اعتقاد العكس ، وإما لإخراجه من ظلمة التردد والحيرة فى قصر التعيين ، فهذا الطريق أيضاً لا بد أن يلاحظ فيه ملحظ بلاغى .

« النفى والاستثناء » . « أنما » قد فات الأستاذ فيهما أن يرجع إلى الشواهد العربية ، ونظر إلى الموضوع من ناحية القواعد الجافة مجردة عن شواهدها ، ولو أنه نظر من هذه الناحية لرأى عجباً ، كما يرى أن المرجع الأول للبلاغة وهو كلام العرب يدل بوضوح على أن هذين الطريقين لا يجيئان حين يراد أصل المعنى أبداً ، وإنما يجيئان حين يقصد المتكلم غرضاً من الأغراض . فالأصل فى الأول أن يجىء فيما يجهله المخاطب وينكره ، فاذا جىء به فيما يعلمه لوحظ تنزيل العالم منزلة الجاهل أو تنزيل المعترف منزلة المنكر « وأما الخبر بالنفى والإثبات فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه ، فاذا قلت ما هو إلا مصيب قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته ، وإذا كان الأمر ظاهراً لم تقله كذلك فلا تقول للرجل ترققه على أخيه وتنبهه للذى يجب من صلة الرحم ومن حسن التحاب : ما هو إلا أخوك . ومتى رأيت شيئاً هو من المعلوم الذى لا يشك فيه قد جاء بالنفى فذلك لتقدير معنى صار به فى حكم المشكوك فيه[1] » .

وأما « إنما » فتجىء فيما يعلمه المخاطب ولا ينكره ولكن مع ملاحظة غرض غير ماتضمنه أصل الكلام « اعلم أن موضوع « أنما » على أن تجىء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزل هذه المنزلة ، تقول للرجل إنما هو أخوك ، وأنما هو صاحبك القديم ، لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته ولكن لمن يعلمه ويقر به إلا أنك تريد أن تنبهه للذى يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب . وأما مثال ما ينزل هذه المنزلة فكقوله :

إنما مصعب شهاب من اللـ ـه تجلت عن وجهه الظلماء

ادعى فى كون الممدوح بهذه الصفة أنه أمر ظاهر معلوم للجميع على عادة الشعراء إذا مدحوا أن يدعوا فى الأوصاف التى يذكرون بها الممدوحين أنها ثابتة لهم وأنهم قد شهروا بها وأنهم لم يصفوا إلا بالمعلوم الظاهر الذى لا يجهله أحد . واعلم أنه ليس يكاد ينتهى ما يعرض بسبب هذا الحرف من الدقائق[1] » .

لعل القارىء يتبين بعد ذلك أننا نخطىء الخطأ الأكبر حين نعتمد على القواعد جافة مجردة عن شواهدها ، أو نلجأ إلى الشواهد التى وضعها المتأخرون ثم نحاول هدم القواعد جملة . والذى قلناه فى هـذه الطرق المشهورة يمكن أن نقوله فى كل طرق القصر ، وبذلك نجد أن العلماء حين وضعوا القصر فى علم المعانى لم يخطئوا .

٤ — أجاب بعض العلماء عن مثل هذا الاعتراض بما أعده « أضعف الإيمان » ولكنه على كل حال جواب صالح . وذلك أن المتكلم قد تدعوه الحال إلى أن يؤدى الكلام مقتصراً على المعنى الأصلى ، وما زال العلماء يرون أن خالى الذهن يجب أن يلقى إليه الكلام مجرداً عن التوكيد ، وبذلك يطابق الكلام مقتضى الحال . قال التفتازانى فى المطول : « أن المقتضى أعم من الموجب والمرجح ، ولا نسلم المنافاة بين وجوب الذكر وكونه مقتضى الحال ، فان كثيراً من مقتضيات الأحوال بهذه المثابة » وهو جواب عن المسألة التى ذكرناها فى أول هذا المقال .

* * *

أما الذهاب بالقصر الادعائى إلى علم البيان فأمره أشد غرابة . وذلك أن علم البيان وضع ليحترز به عن التعقيد المعنوى ، فهو يبحث فى الجملة من حيث أداؤها للمعنى ، فينظر فى ألفاظها ومدلولاتها وتركيبها ، فرجع مباحثه إلى اللفظ التركيبى ومدى تأديته للمعنى ، فالتشبيه والمجاز والاستعارة والكناية كلها طرق يمكن البحث فى صورها من حيث دلالتها على ما سيقت له ، وليس كذلك القصر الادعائى فان المزية التى فيه ليس لها مظهر فى صورة الكلام ، وإنما مظهرها فى اعتبار المتكلم ،

(١) دلائل الإعجاز « بتصرف » .

(١) المصدر السابق

فتنامى المتكلم لكل حالة غير الحالة المتكلم فيها أمر في نفسه هو ولا مظهر له في أجزاء تركيب الجملة ، وإنما جعلت الجملة مشيرة له ، ففرق بين أن تقول : ما شوق إلا شاعر ، وبين أن تقول : شوق بلبل غرّد ثم سكت ، فأنت تبحث في الثانية عن الكلمات وأدائها للمعنى ، وأما في الأولى فأول مرجعك قصد المتكلم وغرضه ، والحال التي ألجأته إلى هذا التعبير ، وهذا هو مبحث علم المعاني . على أن العلماء قالوا إن الجملة يمكن النظر إليها من جهات مختلفة فهي من حيث مطابقتها لمقتضى الحال تكون من مباحث المعاني ، ومن حيث أداؤها للمعنى تدخل في مباحث البيان ، ولاشك أن القصر بجملته يلاحظ فيه الأحوال الداعية . وقد يمكننا على هذا أن ننقل كثيراً من الأساليب إلى علم البيان؛ فالالتفات بأقسامه الكثيرة ، والتعبير بالخبر عن الإنشاء ، والأسلوب الحكيم ، والتعبير عن الأمر بطريق الاستفهام وما يتصل به من هذه المباحث الطويلة العريضة كل أولئك مما يمكن التلمس لها فتدخل في مباحث البيان ، ولكن أهي غريبة عن علم المعاني ؟

أهناك داع إلى هذا التمزيق ؟ لا . المسألة يجب أن تقتصر على التجديد في قواعد الفن والزيادة عليها أو النقص منها ؛ أما أن نجدد فننقل قطعة من مكان إلى مكان ثم لا نفعل شيئاً أكثر من ذلك فلا .

وأحب أن أهمس هنا همسة في آذان الذين ينتقصون القدماء من غير مبرر وهي أن علماءنا الأعلام لم يكونوا أصحاب أذواق مريضة ، ولم يضعوا القواعد وهم مغمضو الجفون عما وراءها من الشواهد ، ولكنهم درسوا تراث العرب الأدبي وفهموه وتذوقوه ثم وضعوا بعد ذلك قواعدهم — أليس السكاكي وهو مقعّد هذا الفن ومفلسفه هو صاحب الرأي القائل بأن إعجاز القرآن لا يدرك إلا بالذوق . وفي ذلك يقول : « واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة ، ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا[1] » . ويقول في موضع آخر بعد أن ذكر وجوهاً أربعة للإعجاز « يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة ولا استبعاد في إنكار هذا الوجه ممن ليس معه ما يطلع عليه فلكم سحبنا الذيل في إنكاره ثم ضممنا الذيل ما أن ننكره[1] » . أوليس السكاكي هو الأعرج الثاني الذي قيل فيه وفي صاحبه الزمخشري : « لولا الأعرجان لضاعت بلاغة القرآن » ؟ أفبعد هذا يقول قائل إننا لا نثق في ذوق المتقدمين « وأنهم شملهم كغيرهم ذوق العصر ، ولم تستقم في أذواقهم اللغة غضة طرية عطلا من زينة وحلية ، ومن ثم كانت تفاهة الاستشهادات والتخريجات، وكان لجوؤهم إلى الفلسفة هرباً من الناحية الذوقية ، فقاسوا بالشبر والقيراط ، ولم تظهر لهم الزينة في القوة والعذوبة والسلاسة والنغم فطلبوها بالصبغ والألوان والشعبذة اللفظية[2] » .

بخ . بخ ... لقد قال شوقي على لسان أحد أبطاله :

تهددني زياد وأنت ظل ... لمجنون وراوية لهذي
وتزعم أنني ندٌّ لقيس ... رضيت من المصائب غير هذي

فهل كان يقوله على لسان السكاكي والخطيب وغيرهما من أساطين البلاغة والأدب ؟!

(يتبع)

علي العماري
المدرس بمعهد القاهرة

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٦ طبعة الحلبي .

(١) المصدر السابق ص ٢١٧ .
(٢) من مقال للأستاذ كامل شاهين « الرسالة » (٦٩٢)

من غرائب النسيان . . . !

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني

كنا جماعة نتحدث في شتى الشئون ، فأطلعنا الأستاذ محمد عبد الغني حسن على كتاب فرنسي طبع حديثاً نقل فيه صاحبه مقتطفات من الشعر العربي إلى اللغة الفرنسية ، وكانت إحدى هذه القصائد بعنوان « تحت الشراع » للأستاذ عبدالغني ترجمها الناقل عن مجلة « الرسالة » عام ١٩٤٠ . وتتبعنا الشعر الفرنسي محاولين رده إلى أصله العربي فعجزنا ، وهنا طلبنا من صاحب الشعر — أي الأستاذ عبد الغني — أن ينشد شعره الذي نظمه ، فأجاب : لقد نسيت ! قلنا : ألا تذكر مطلع القصيدة ؟ قال : لا . قلنا : ولا بيتاً واحداً ؟ قال : لا . وهنا بلغ منا العجب مبلغه ... كيف ينسى صاحب الشيء شيئه هذا النسيان الغريب !

ومن المعروف أن كثيراً من الشعراء يحفظون شعر أنفسهم ولا ينسونه وينشدونه في المناسبات . ومن هؤلاء على سبيل المثال صديقنا الشاعر غنيم . غير أن السؤال الذي يحتاج إلى جواب هو : لماذا ينسى المرء أعماله وآثاره ، وبمعنى آخر : لماذا ينسى نفسه ؟ !

قلت في تعليل ذلك — وسكت الأستاذ عبد الغني عند هذا التعليل دون تعليق — : إن الشاعر شخص مبدع خالق مبتكر قبل كل شيء ، مثله في ذلك مثل الفنان الذي يبدع آثاراً فنية ، كالتماثيل التي يصنعها النحات ، أو اللوحات الزيتية التي يرسمها المصور ، والشعر كالتمثال أو كاللوحة الزيتية ، يتركب من شيئين : من المعنى الحائر في الذهن ، أو الفكرة المبتدعة في صفحة الخيال ، ومن مادة يصوغ فيها الفنان هذه الفكرة ؛ فمادة التمثال الرخام أو النحاس ، ومادة اللوحة الألوان ، ومادة الشعر الألفاظ . وكثيراً ما يسخط الفنان على عمله فلا يرضى عنه ، وعندئذ يحطم النحات تمثاله ويكسره ويأبى أن يظهره ، أو يمحو المصور لوحته ، وقد يتركها دون أن يتمها ؛ أو يأبى وضع اسمه عليها . تعرفت بمصور بمدينة المنصورة كان يشتغل مدرساً بها ، اسمه الأستاذ حلمي ، ثم طلبت منه صورة زيتية من ريشته أحتفظ بها تذكاراً لصداقته ، فأحضر لي صورة تمثل منظراً ريفياً على شاطئ النيل ، ولم تكن ممهورة باسمه ، فقلت له : ضع عليها خاتمك ، فرفض . ولم أثقل عليه ، لأني فهمت ما يقصد : الصورة أعجبتني ، ولكنها لا تعجبه ، ولو أنه صانعها !

فإذا كان الأستاذ عبد الغني قد نسي شعره ، فذلك لأنه فنان يسخط على ما يفعل ، ولا يرضى عما يبدع ، إذ يتطلع دائماً إلى الكمال والترقي . ولو رضي الناس عن أعمالهم ما تقدموا . وأكبر الظن أن الصورة الشعرية تكون في الذهن بالغة غاية الروعة ونهاية الكمال ، غير أن تحقيقها في المادة ، وصياغتها في أثواب من الألفاظ هو سر نقصها . والمادة هي علة النقص في الوجود .

وأذكر حادثة أخرى من نوع آخر :

ركبت الترو من عماد الدين ، حتى إذا بلغت مصر الجديدة في إحدى محطاتها المتوسطة ، سألني أحد الركاب — وكان يجلس أمامي — هل هذه الحافظة لك ؟ فنظرت إلى جانبي فرأيت مكان الراكب الذي كان إلى جواري خالياً ، ورأيت حافظة نقود ليست حافظتي . قلت : إنها ملك الراكب الذي نزل ! وهنا سألت نفسي : ما شكله ؟ هل هو شاب أو شيخ ؟ هل هو هزيل أو بدين ؟ هل هو أسمر أو أبيض ؟ كل ذلك لم أذكر منه شيئاً كأن أحداً لم يجلس إلى جانبي . ثم تناولنا الحافظة وفتحناها ووجدنا فيها أوراقاً باسم « عماد » . وبدا لي أن أنادي هذا الإسم لعل صاحبه يستجيب ، فقلت : عماد ... والتفت شاب أوشك أن ينصرف في أعماق الشارع ، ولوحت له بالحافظة فأدرك المقصود ، وعاد مسرعاً وأخذها شاكراً . هنا فقط تذكرت ؛ أو على الأصح تعرفت عليه ، وبان لي أنني تأملت هذا الشخص حين كان إلى جواري ، إذ كان يقرأ كتاباً باللغة الإنجليزية فيه أشكال رياضية ، واستنتجت عند ذلك أنه طالب في كلية الهندسة أو كلية العلوم ، وكان يلبس بنطلوناً وقميصاً فقط . ثم سألت الراكبين : هل يذكر أحدهم هذا الشخص ؟ فقالوا جميعاً : لا . قلت في نفسي : لو أن هذا الشخص ارتكب حادثة أو جناية ، ولم تكتشف إلا فيما بعد ، ثم طلبنا البوليس إلى الإدلاء بالشهادة فماذا كنا نجيب ؟ ثلاثة رجال لا يتذكرون شيئاً عن شخص رابع ظل يجلس معهم نصف ساعة على الأقل ، ووقعت أبصارهم

فيضان النيل ...

بين التفاؤل والتشاؤم

للأستاذ عبد الفتاح البارودي

ذكرتني القصيدة التي نشرتها « الرسالة » تحت عنوان : (وحي نيضان سنة ١٩٤٦) في عددها رقم ٦٩٣ بالفزع البالغ الذي أصاب البلاد جميعاً إبان اشتداد الفيضان في أغسطس الماضي، وغني عن البيان أن النكبة كانت جسيمة وأن الخسارة الناجمة عنها كانت ولا تزال فادحة ، ولكن هل كان ينبغي أن يصل الأمر إلى هذا الحد من التشاؤم الذي شاهدناه مرتسما وقتئذ على وجوه الناس والذي صورته كل الصحف بلا استثناء والذي أوحى إلى الشاعر أن يصف الفيضان (بالهول العظيم !!) ويصف مياه النيل بأنها (ترد البلاد كأنها أغوال !!) ؟

صحيح أنه كان لشدة اهتمام الحكومة وقلقها ومظاهر الرعب التي بدت على تصريحاتها أثر محسوس في الإشعار بالخطورة ، ولكن أليس المفروض من جهة أخرى أن التزاماتها ومسؤولياتها قد تسوغ لها « تقدير البلاء قبل نزوله » لتهيء الشعب لاحتماله أو دفعه أو توقيه بالحيطة والحذر والعمل تهيئة جدية ؟ ومع هذا فالإجراءات التي اتخذتها — وقصاراها اعتماد مبلغ ٢١٠ آلاف جنيه وتشغيل بعض الأيدي العاملة — كان ينبغي أن ترشدنا إلى أن الحالة كانت مطمئنة أو على الأقل غير مروعة إذا قورنت بالسوابق في الفيضانات التي انتابت البلاد الأخرى في القديم والحديث، بل إذا قورنت بالسوابق الغير بعيدة في فيضانات النيل ذاته « نسبياً » : ذكر ابن تغرى بردى في (النجوم الزاهرة) أنه كان يُرصد لعمارة جسور النيل واتقاء فيضانه ثلث الخراج سنوياً ، وحكى ابن لهيعة أن المرتبين للوقاية من الفيضان سنوياً مائة ألف وعشرون ألف رجل : سبعون ألفاً للصعيد ، وخمسون ألفاً للوجه البحري . وبرغم هذه الاحتياطات الشديدة فقد روى ابن زولاق أن أحمد بن المدبر لما ولي الخراج بمصر كشف أرضها فوجد غامرها أكثر من عامرها .

أي أن الحالة التي كانت استفحلت هذا العام لم تكن غريبة على الوادي ، ولم تكن تستلزم ولا تحتم التشاؤم الأسود الذي قابلناها به ، بل إني أزعم بكل شجاعة — بعد فوات الأوان ! — أن التفاؤل المطلق كان أنسب لها وأحرى بنا !! لماذا ؟ أبادر فأقول إن الحجة حاضرة ولكني أريد قبل أن أسوقها أن أسوق من بعض حوادث أسلافنا بهذا الصدد عبرة وقياساً ولو لمجرد الترفيه الفني والتذكير التاريخي : جاء في (نهاية الأرب) للنويري أن النيل يبلغ تمامه إذا وفى ستة عشر ذراعاً ، والذراع أربعة وعشرون إصبعاً بمقياس مصر . أي أنه بالبداهة إن زاد عن ١٧ ذراعاً مثلا كان مُغرقا وإن نقص عن ١٣ ذراعاً مثلا كان مقحطاً . فما الرأي في أن الناس كانوا يتفاءلون بزيادته مهما أغرقت ويتشاءمون من أي نقصان مهما قصد واعتدل ؟ وما الرأي في أن الحوادث كانت تؤيدهم دائماً تأييداً إن يكن غير منطقي إلا أنه واقعي ؟ فمثلا عند ما بلغت زيادة النيل أقصاها (١٩ ذراعا) في سنتي ٣٣٣ هـ ، ٤١٠ هـ تصادف أن كانت حوادثهما سعيدة في الغالب . ففي السنة الأولى تزوج ابن الخليفة المتقي بالله بنت

عليه ، وشاهدوه ، ثم ينسون كل شيء عنه ... هذا أمر عجيب ! والأغرب من ذلك اتفاق الثلاثة على هذا النسيان ! اللهم إن شهادة الشهود في المحاكم أمر مشكوك فيه ، ويجب على القضاة أن يتنبهوا إلى هذه الحقائق النفسية الثابتة بالخبرة والتجربة !

لا أملك الحديث عن زملائي الآخرين ، ولكني أعرف نفسي . فأنا حقيقة كثير النسيان ، وعلى الخصوص فيما يتصل بأسماء الأشخاص . وهذه مسألة تحدث لي كثيراً من الخجل والارتباك عند ما أكون في صحبة صديق ، ثم أقابل صديقاً آخر في الطريق مثلا فأحييه ويحييني ، ويستوقفني يتحدث إلي ، ثم أحاول أن أقدم الشخصين أحدهما إلى الآخر ، وهنا تخونني الذاكرة فأفتقد اسم صديقي ، وقد يكون عزيزاً لدي أعرفه من زمن طويل ، وليس مايدعو إلى نسيان اسمه ، فأقع في الحيرة والخجل ، وألجأ إلى الحيلة فلا أقدم أحدهما إلى الآخر ، وأضرب صفحاً عن هذه المجاملات الاجتماعية الضرورية .

وقد تسألني : وما علة هذا النسيان ، وما سبب نسيان أسماء الأصدقاء بالذات ؟

الواقع أنني لم أعثر على جواب يقنعني ، ولعل أحداً يتبرع بالجواب ...

أحمد فؤاد الأهواني

ناصر الدولة بن حمدان التغلبي وتآلفت قلوب المسلمين ... وفيها أطلق الروم أسارى المسلمين ... وفي السنة الثانية فتحت بلاد الهند وغنم المسلمون بغنائمها ... الخ . هذا بينما عند ما بلغ انخفاض النيل (١٢ ذراعاً) فقط في سنتي ٢١٥ هـ ، ٣٥٦ هـ تصادف أن كانت حوادثهما محزنة في الغالب . ففي السنة الأولى غضب الناس على الوالي عبدويه بن جبلة وحزنوا كذلك لوفاة زبيدة بنت جعفر زوجة هرون الرشيد، وكانت أعظم نساء عصرها ديناً وأصلا وجمالا وصيانة ومعروفاً ... وفي السنة الثانية مات السلطان معز الدولة ابن بويه ، وقبض على الملك الناصر وولده أبو تغلب ومات الإمام العلامة أبو الفرج الأصبهاني مصنف كتاب الأغاني ... الخ .

مصادفات . ولكن أعجب ما فيها دلالاتها المطردة في سنى الرخاء والجدب على السواء .

فإذا تركنا التكهنات إلى الحقائق . وجدنا بالاستقراء والاستقصاء أن وادي النيل لم ينكب نكبة واحدة بسبب الفيضان أيا كان طغيانه في حين أن المجاعات الفظيعة في مصر كالمجاعة التي حدثت في آخر حكم الأسرة السادسة الفرعونية ، والمجاعة التي حدثت أيام يوسف الصديق ، والمجاعة التي حدثت في العهد الفاطمي وعرفت باسم « الشدة المستنصرية » ، والمجاعة التي حدثت في عصر المماليك زمن السلطان كتبغا ... إلى آخر المجاعات التي روعت الوادي واجتاحته في مختلف العهود تدل دلالة قاطعة على أن سببها الوحيد المباشر هو انخفاض النيل على تفاوت . وأظن أني لست في حاجة إلى وصف حالة البلاد وسكانها أثناء هذه المجاعات فذلك مذكور مشهور في كتب الأدب والتاريخ .

ومن قبيل التمثيل أذكر بعضاً مما حدث أثناء « الشدة المستنصرية » في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، فقد وصل الأمر إلى حد أن أكلت النساء أولادهن الموتى ، وأكل الناس الحيوانات الميتة من كلاب وقطط وحمير وغيرها لدرجة أن تسبب عن التهافت عليها ارتفاع أثمانها وصعوبة الحصول عليها ، وزادت المحنة اشتداداً حتى كاد الناس من هول الجوع يأكل بعضهم بعضاً . رُوِيَ أن وزير المستنصر نزل عن بغلته أمام باب القصر وتركها تحت حراسة غلامه فهجم ثلاثة رجال على الغلام وأخذوا البغلة قسراً وذبحوها وأكلوا بعضها وباعوا الباقي فقبض عليهم وصلبوا عقاباً لهم في أحد الميادين . فلما أصبح الناس لم يروا إلا بقايا عظامهم إذ كان الشعب الجائع قد أكل لحومهم أثناء الليل ! !

هذا مثل واحد من أمثلة المجاعات التي كانت تحدث بسبب انخفاض النيل ، ولذلك أجمعت الروايات المختلفة على أنه « كان يحصل لأهل مصر إذا وفى النيل — بغير تحديد — فرح عظيم بحيث أن السلطان يركب في خواصّ دولته وأكابر الأمراء في الحراريق إلى المقياس ويمد سماطاً يأكل منه الخواص والعوام ويخلع على القيّاس ويصله بأجزل الصلات » ونحو ذلك .

فلماذا لا نساير منطق الحوادث ، ومنطق الحقائق ، ومنطق التاريخ معاً ، ونتفاءل أعظم التفاؤل من الفيضان الذي دهمنا هذا العام — بشرط عدم التهاون أو التراخي في تدبير وتوفير وسائل المكافحة الدائمة مستقبلا — فلعل خطورته أن تسفر كالعهد بها عن مصادفة سعيدة ، ولعلها أن تكون تحقيق « الجلاء ووحدة وادي النيل » .

عبد الفتاح البارودي

من يد ذات سوار

إلى حضرة الأستاذ على الطنطاوى

موضوعاتك ياسيدى صفقات رابحة فى عالم الأدب ، ونفحات عاطرة من أريج القلم . ومنْ أنا حتى أستطيع أن أقول ما يعنّ لى تلقاءها ؟ وا أسفاه ! لست ربة قلم ، ولا صاحبة بيان ، وليس لى من الحول والطول مايعيننى على نشر مايجول بفكرى وخاطرى .

بعثت بمقال مرة رداً على أحد الكتاب إلى إحدى المجلات ، فكان نصيبه الإهمال . وكم فرحت كثيراً لأنه لم يُنشر ، ذلك أنى بعد أن بعثت به تذكرت : (إن الله تعالى يحب معالى الأمور ويكره سفسافها) . فإما أن أكتبَ فى « الرسالة » بين كتاب الأدب الرفيع وإلا فلا .

ولو أن الله وهبنى من العقل ِكفاء ما وهبنى من الحسّ لكان لى فى ميدان الكتابة شأن . ولقد شاء الله أن أتذوّق فنون الكلام وحلاوة البيان ، و « للرسالة » فضل كبير فى هذا التذوق ، فقد عكفت على قراءتها بانتظام منذ أكثر من عام ، وعشت بنفسى وحسى مع كتابها العظام ، أحمل لهم من التقدير والاحترام ما لا ينضوى تحت صفة ولا معرفة ، وأنت يا سيدى الطنطاوى من هؤلاء ، فلو رأيتنى حين أقرأ مقالاتك ، لوجدتنى صوّالة بها جوالة فى عالمى الصغير باحثة عن زميلة تشاركنى السرور فى تلاوتها ، خصوصاً ، وأنك من قطر شقيق لى فيه صديقات تتجلى فى سجاياهن أرفع آيات المودة والإخلاص والنبل .

وإنى أخشى أن أثيرك بهذه العجالة فيصيبنى من يراعك ما لا أنساه ما عشت .

إن استهلالك فى موضوعك (مناظرة هادئة) بقولك : (نحن معشر الرجعيين لا نرى قتالَ المرأة ولا نزالها) هو الذى شجعنى على أن أقف أمام مقامك الكريم موقف التلميذ من معلمه — ويحى !! وهل لمثلى أن تطمع فى هذا الشرف ؟ .

لو كنتُ من قريباتك ... مالى أقول هذا والمسلم أخ للمسلمة وهى أخت له . وإذن لى — بهذه الأخوة — عليك دالّة خفيفة مشفوعة بالأدب والطواعية ، وعلى ذلك أتقدم إليك قائلة : إن موضوعاتك كلها تأخذ بمجامع قلبى ، وتغذى روحى ولبى ، وكلها من صميم الواقع الملموس ، غير أن بعضها موشى بقليل من المغالاة والحدة ، وإن الموضوع الذى عنونته (مناظرة هادئة) كان أحْرى أن تسميه (مناظرة ثائرة) . ألستَ معى فى أن لفظ مناظرة فيه معنى النظير ، وهذا لا يتفق مع ما بدأت به مقالك . يعلم الله أنى تلوت هذه المناظرة بشغف ، ولم ألمس فى غضونها ذلك الهدوء الذى نمتها به ، وإنما لمست فيها صرخة مجلجلة وتهداراً .

إنه لايزال يتوارد على نفسى ، ويرن فى سمى كل يوم حديث تلك القصة التى طلعتَ بها علينا فى صفحات « الرسالة » عن تلك الفتاة التى صُوّرت عارية ، فسجلتَ بذلك على هذا العربى الذى فعل هذا الفعل خزياً لم نسمع به من قبل . يا للعار والقسوة أيحدث مثل هذا فى بلد عربى ؟

إن القلم الذى تحمله رهيف يحز فى نفسى ، ويترك أثره فى حسى ، فهلّا رأفتَ وخففت من إرهافه ؟ رأفت ! كيف أقولها وأنت الذى فى ثنايا فؤادك (رفقاً بالقوارير) .

إنى لتعجبنى تلك النزعة التى تنزع إليها فى مناهضة السفور واختلاط الجنسين ومشاركة المرأة الرجل فى أعماله ، ومن المعروف أن النهضة النسائية قام الرجل فيها بقسط كبير ، وكانت له اليد الطولى فى توجيه دفتها ، ومادام الرجل قواماً على المرأة فهو الذى يحمل وحده وزر هذه التبعة ، وهو الذى فتح عليها سدود النهر فجرفها التيار ، ثم بعد ذلك قطعت شوطاً بعيداً فى عالم الأزياء ، وقلدت الأجنبيات ، وحملت الشهادات من بكالوريات ودبلومات

إن هذه الحملة التى تقوم بها تكون أجدى لو أرسلتها صواعق متوالية فى غارات مدوّية على الذين بيدهم مقاليد الأمور والحكم ، فإن هؤلاء فى مقدورهم أن يحملوا الناس على السير بتعاليم الإسلام ، وفى مكنتهم إغلاق أبواب الفجور ، ومنع إصدار الصحف التى تخدش كرامة الفضيلة .

يا للاساءة التى تصبها على المتعلمات بقولك : (ويجمعهن مجلس بعد هذا كله بالعاميات الجاهلات ، فلا تجدهن أصح منهن فكراً ، ولا أبعد نظراً ، ولا ترى لهذا الحشد من المعلومات الذى جمع فى رءوسهن من أثر فى المحاكمة ولا فى النظر إلى الأشياء ؛

فكأن هذه المعلومات التي تصب في اسطوانات الحاكي (الفونوغراف) إن أدرتها سمعت لهجة فصيحة وكلاماً بيّناً، ونغماً حلواً فتقول إنها تنطق، فإذا سألتها وكلمتها رأيتها جماداً أخرس ليس فيها إلا ما استودعته من الكلام الملحّن.

هذا يا أستاذ كلام لا تقبله فتاة ولو كانت نصف متعلمة مثلي. هـذا تجريح لإنسانيتها التي يكنفها العقل والشعور. (جماداً أخرس؟) يا لبشاعة الوصف والتشبيه! (جماداً أخرس؟) كيف؟ وقد برأها البارئ إنساناً ضاحكا ناطقاً فيه حركة ولب وإحساس. هذا لا يُستغرب لأنك لا تؤمن بالإنسان.

إن لي صديقات، وأعرف جمًّا غفيراً من السيدات والفتيات كلهن متعلمات وحاملات للشهادات: ولسْنَ كما تقول، فإذا جمعك بهن مجلس وسمعت حوارهن ونقاشهن لا يسعك إلا أن تغيّر رأيك في بنات هذا الجيل، وإذا كنت تصف المثقفة بالجماد الأخرس فبماذا تصف الجاهلة؟

قل ما شئت من ناحية الدين في فتاة العصر، فإني أشايعك على كل ماتقول، ولو أن هنا في مصر نهضة نسائية دينية مباركة، يملك زمامها جمعية الأخوات المسلمات، بارك الله فيهن، وحقق على أيديهن ما يرضاه الدين للمرأة المسلمة. أما من ناحية العلم والمنطق فالبَوْن شاسع والشقة بعيدة بين الجاهلة والمتعلمة.

لستُ بهذا أدافع عن نفسي، وإنما الدفاع واجب عليّ لمن عرفت فيهن سداد الرأي واستقلال الفكر وبعد النظر ووزن الأمور بميزانها.

وقلت أيضاً: (ثم إن تزوجن لم يعتنين إلا بإهمال الولد الخ).

وأقول أنا إزاء هذا: إني أعرف سيدات فضليات متعلمات، لا جاهلات عاميات، ينشّئن أطفالهن أحسن تنشئة، ويحرصن على تربيتهم بأنفسهن، ليكون منهم في المستقبل رجال نابهون، وأجناد مجاهدون، وقادة محنكون.

إن تلك التي تهمل طفلها وتتركه بأيدي الخدم خرقاء ولا تعد في سواد النساء.

(إنه لا يعجب إحداهن إلا أن تلقى في زوجها حماراً) هكذا قلت. ولكن أكلّ هؤلاء الرجال الذين تزوجوا متعلمات تعدهم في شرعتك حميراً؟ (معاذ الله) من فيهم يرضى بهذا؟

إن السيدة المتعلمة الراقية المستنيرة لا ترضى على الإطلاق أن تلقى في زوجها (حماراً) تركبه — كما تقول — إلى غايتها. إنها ترفض في شمم وإباء أن تفقد احترامها للرجل الذي يشاطرها الحياة، ولا بدّ لها من الإحساس بأنه السيد المطاع القوّام الذي تخافه رغبة لا رهبة. وقياساً على هذا أتقول إن أزواج المتعلمات كلهم أشقياء؟ إن كان الإيجاب، فيالعثار جدهم، وسواد عيشهم!

إني استحييت مرة من قراءة بعض العبارات التي وصفت بها محاسن المرأة وصفاً سافراً، ولولا حرصي على قراءة أفكارك كلها لأبيت قراءتها.

وما يعجبني إلا كتاباتك في الحب والغزل، وحسن وصفك للغواني. قدرٌ قدير — بلا شك — في ألوان الكتابة. أوَليس في هذا الكفاية لما تحمله من احترام المرأة وإكرامها؟

كثيراً ما تدفعني مقالاتك إلى الكتابة. لعل فيها سراً يحبب إليّ الأخذ بناصية القلم، ولكني لا ألبث أن أدعه هيبة وإجلالا.

لا أدري كيف كتبت هذا المقال الجريء، مع أني أعلم أني أمام جهبذ من جهابذة الأدب، فاعذرني ياسيدي لأن الحق أنطقني.

لا يغضبنك هذا القول، فما قصدت به إلا الترفيه عنك، ليزول من صدرك تبرّمك بالمرأة المتعلمة. وعسى أن تجد فيما كتبتْه صاحبة اليد ذات السوار — كما وصفتها — رَوْحاً وترويحاً ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(يد ذات سوار)

الأدب في سير أعلامه :

ملتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والجبال . . .]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٣٢ —

البطل الضرير :

أدت نظرة ملتن إلى المرأة أنها دون الرجل منزلة وعقلا إلى إهمال منه معيب في تعليم بناته فكبرن وحظهن من الثقافة قليل ، وكن لا يعرفن إلا لغتهن إذ رفض أبوهن أن يعلمهن لغة غيرها . وكان يقول في ذلك ساخراً « حسب المرأة لسان واحد » ؛ وكان أبوهن في شغل عنهن أكثر الأوقات بكتيباته وخصوماته وأعباء منصبه فكان يترك أمورهن للخدم . والحق أن ملتن كان متخلفاً عن عصره في النظر إلى تعليم البنت ولذلك لم يشايع كومنس حين كتب هو عن التعليم رسالته التي سلفت الإشارة إليها إذ كان كومنس يذهب مذهب أفلاطون في المساواة بين البنين والبنات ، وكان لا يعني ملتن إلا بالبنين ، وعنده أن من العبث تعليم البنت كما تعلم الكائنات العاقلة على حد تعبيره .

وأملت عليه بيوريتانيته أن يحيط بناته بشيء من الخشونة فلم يمتعهن كما تتمتع البنات إلا قليلا ، فأحسسن استبداده بهن وإن لم يشعرن منه بغلظة أو فظاظة ، وزاد إحساسهن شدة حرمانهن من أمهن ، فقر في نفوسهن شيء يشبه أن يكون جفاء منهن لأبيهن .

ولما عاد ملتن إلى الشعر وأراد أن يرجع إلى الكتب التي تتصل بموضوعه ، كان يقرأ له ويكتب رجل استأجره لذلك ، ولكنه كان لا يعرف غير الانجليزية حتى لقد شكا ملتن في كتاب إلى صديقه أنه كثيراً ما يتضجر ويضيق بهذا الكاتب الذي يضطره إلى أن يذكر له هجاء كل عبارة لا يتبينه عليها عليه كلمة كلمة ، وكان يقرأ له أحياناً بعض الشباب ممن تنافسوا في الحظوة بهذا الشرف وممن طلبوا الفائدة من القراءة له ، كما كان يرسل بعض أصدقائه أبناءهم ليحظوا عنده بالقراءة أو الكتابة له وليقوموا بذلك ألسنتهم وليفيدوا عرفانا وبياناً .

ولكنه كان لا يضمن مجيء هؤلاء إليه كل حين ، وعلى ذلك فقد عول على تعليم بناته النطق باللغات المختلفة وهن لا يفهمن شيئاً مما تتحرك به ألسنتهن وبذل في ذلك جهداً كبيراً وهو على حاله من المرض والعمى ؛ وإنه لعجب أن يحرص هذا الحرص كله على المعرفة فلا يقعد عن وسيلة مهما بلغ من عسرها وإنها لحالة تملأ النفس أسى على ما مسه من ضر بقدر ما تملؤها إعجاباً بعزيمته التي لا تعرف كلالا ولا سأماً . ولا ريب أنه كان يستشعر كثيراً من المرارة والحزن في تلك اللحظات التي لا يجد فيها من يقرأ له أو يكتب ما نظم من الشعر ، ولم يك له عزاء في هذا البلاء إلا استغراقه في قصيدته الكبرى وإقباله عليها بكل جوارحه وارتياح نفسه إلى أن يحقق أملا طالما طاف بخياله وأثلج فؤاده وأبهج نفسه .

وكان يدعو بناته ليقرأن له ما يطلب من الكتب اللاتينية والعبرية والأغريقية والفرنسية والطليانية والأسبانية ، فينطلقن نطقاً آلياً بعبارات لا يفهمن منها بالضرورة شيئاً ؛ وكن يضقن بهذا ويتبرمن به ويتضجرن منه ، وحق لهن أن يكرهن هذا العمل كرهاً شديداً ، فإذا دعاهن أبوهن إليه أقبلن متثاقلات متكرهات ، ثم اعتذرت كبراهن بما في لسانها من حصر لا تحسن معه النطق فأعفاها أبوها من القراءة وجعلها للكتابة فوقع عبء القراءة على الوسطى فازدادت بذلك ضيقاً وضجراً .

وما زال يشتد ضجر ماري وهي الوسطى حتى أصبح تمرداً وعصياناً فصارت تهمل ما يطلب إليها أبوها متغافلة أو متناسية . وكانت تعرض عنه أحياناً ساخطة ناقمة ؛ وصبرت دبرا وهي الصغرى بعض الصبر ، ولكنها ما لبثت أن تكرهت لأبيها وخشنت عليه وما برحت تشكو لأختها أنه يدعوها في أي ساعة من ساعات الليل فيوقظها وهي مستغرقة في نومها لتكتب بضعة أسطر نظمها .

وتفاقم الأمر فكره البنات أباهن حتى ما يطقنه ؛ قالت الوسطى مرة وقد سمعت أنه يزمع أن يتزوج « ليس في الحديث عن زواجه ما يعد جديداً من الأنباء أما أن أسمع بموته فني ذلك ما يؤبه له » .

وتآمر البنات مع إحدى الخدم على غشه فيما يشترى ويبيع مما يحتاج المنزل إليه ، وفعلن أقبح من ذلك فأعن الخدم على بيع كتبه بغير علمه فإذا علم بشيء من هذا مس الحزن قلبه مساً شديداً ولكنه يكظم غيظه ويكتم أمره عن الصحب والجيرة مخافة العار ، وكم كان وقع ذلك أليماً على نفس كبيرة مثل نفسه ، وكم كان يشعره ذلك بما آل إليه حاله من استكانة بعد عزة ، ويذكره بهذا الضر الذى أحاطه بالظلمة فجعل من بناته عدوات له .

ولكن روحه قوية على الرغم من هذا كله ، وإقباله على قصيدته واستشرافه لآفاقها الفسيحة العليا يدفع عن نفسه القنوط إذ يرفعها من عالم صغير حقير إلى ملكوت لا يدرك جلاله وعظمته إلا عقل مثل عقله وروح مثل روحه . ولقد كان له في الشعر أعظم العزاء وأطيبه وإن كان يمد أحياناً إلى قيثارته فتختلج أوتارها بين يديه بلحن يسرى به عن نفسه أو يهيء به جواً ملائماً لما تجيش به نفسه من شعر .

عود إلى الشعر :

انقطع ملتن عن الشعر منذ سنة ١٦٤١ كما سلف القول ، ولم يكد يعود إليه سنة ١٦٥٨ حتى انشغل عنه بما كتب في عهد ريتشارد وتقبيل عودة الملكية . ثم أقبل عليه إقبالا غير منقطع منذ أن نجا بحياته في أواخر سنة ١٦٦٠ ؛ ومن ذلك نرى أنه انصرف عن الشعر قرابة عشرين سنة وهى مدة طويلة لم يقضها في تأمل وهدوء وتهيؤ على نحو ما كان يفعل في هورتون ، وإنما كانت حياته فيها كما رأينا مليئة بالأحداث حافلة بالخصومات ، ولكنه أفاد خبرة عظيمة وتم نضجه فأصبح كالشجرة المحملة بالثمرات تجود بأطيبها لأقل هزة ...

ولم تخل هذه السنوات العشرون من الشعر خلواً تاماً فقد نظم الشاعر أثناءها بعض المقطوعات في مناسبات مختلفة ،
وليست هذه المقطوعات من نفاية الشعر كما قد يخيل إلى المرء فإن لها لشأناً جليلا في ذاتها ومنزلة سامية في تاريخ هذا النوع الذى نسميه المقطوعات ، ولذلك نرى أنه يجدر بنا أن نتكلم عنها ونبين مبلغ ما لها من خطر في الشعر الانجليزى قبل أن نتكلم عن الفردوس المفقود وما جاء بعدها .

جاء ملتن من هذه المقطوعات بما لم يتته فيه كثير من أفذاذ هذا الضرب من النظم منتهاه ، ولقد قل فيه أكفاؤه وذهب له فيه صيت عظيم جعله نداً لشكسبير في هذا الباب على قلة ما نظم منه بالقياس إلى شكسبير إن لم يك يبرعه في أكثر من ناحية من نواحيه . ولقد أصبح فيه مثالا لمن جاء بعده فاحتذى حذوه وأعجب به وردثورث وكيتس وغيرهما من شعراء القرن التاسع عشر .

ولا بد لنا من كلمة في أصل هذه المقطوعات ونشأتها لا في شعر ملتن وحده ولا في الشعر الانجليزى وحده ولكن في الشعر الأوروبى بوجه عام ثم نعطف الكلام بعد على مبلغ ما توافى للتن فيها من براعة وتبريز .

لم يقطع نقدة الأدب الأوروبى برأى في نشأة المقطوعات[1] وتسميتها بهذا الإسم الذى سموها به ؛ يرى بعضهم أن الإيطاليين هم مبتدعوها ، وأن اسمها يرجع إلى لفظ إيطالى معناه اللحن الصغير أو الصوت الصغير[2] وهو لحن كان يغنى على عود أو قيثارة . ويرى فريق آخر أن منبتها كان في فرنسا في مقاطعة بروفانس وأن اسمها نجم من تلك الكلمة الفرنسية التى تطلق على الجرس الصغير[3] أو جرس النبات . ويذهب البعض إلى أن أصلها أغريقى وأن الأغريق اختاروا لها لحنها ووضعها الفنى بعد أن مرت على عدة أطوار من الخلق والابتكار . ولأحد النقدة وهو وليم شارب رأى غير هذه جميعاً فهو يردها إلى أغانى الرعاة في صقلية وجنوبى إيطاليا ويرى أنها انتهت إلى وضعها المعروف بعد أطوار مختلفة ، ورد اسمها إلى الإسم الذى كان يطلق في هاتيك الجهات على أغنيات الفلاحين والرعاة[4] على وجه العموم .

(١) Sonnets : وقد اخترنا لها لفظ المقطوعات في العربية ، وإن كان لا يؤدى المعنى الفنى لها ، ولكنه على أى حال خير من تسميتها بالأغنيات

(٢) Sonetto (٣) Sonnette (٤) Stornello

وكان أول ما ظهرت تلك المقطوعات فى صورتها ولحنها الخاصين بها فى الأدب الإيطالى فى القرن الثالث عشر فى شعر شاعرين هما : بيردل ڤنى وجيوتودارزّو ؛ وكذلك كان أول من طرق هذا الضرب من النظم من كبار الشعراء من الإيطاليين فقد تغنى دانتى فى أواخر القرن الثالث عشر بحبيبة قلبه بياتريس فاتخذ لغنائه عدداً من هاتيك الألحان ، وكذلك أفصح بترارك فى أوائل القرن الرابع عشر عما ينبض به قلبه من حب لمشوقته لورا بعدد من تلك الأصوات الصغيرة التى سميناها المقطوعات .

أما عن الصورة أو الوضع الذى انتهت إليه المقطوعة فى الأدب الإيطالى فانها لم تك تزيد على أربعة عشر سطراً . ثمانية منها تكون من حيث النغم والموضوع فاتحة المقطوعة أوصدرها ، وتكون الستة الباقية خاتمتها أو « قفلتها » ، ولا بد فى الفاتحة أن تجرى قوافيها على وضع معين، فالقافية فى السطر الأول مشاكلة لها فى الرابع وبينهما الثانى والثالث متحدة قافيتهما ولكنها منايرة لما بدأت به المقطوعة ، ثم يكرر هذا الوضع حتى تتم الأسطر الثمانية[1] بعد ذلك وتتغير القافية فى الأسطر الستة التى تكون الخاتمة على أساس أن تكون ثلاثتها الأولى مشاكلة لثلاثتها الثانية[2] .

وأما عن موضوع المقطوعة فهى كما يفهم من حجمها يقصد بها التعبير عن معنى من المعانى تجيش به النفس فى مناسبة من المناسبات ، أو هى تسجيل لخاطر يخطر للقلب فى غير استطراد يخرج به عن أن يكون خاطراً هو ابن لحظته أو ابن مناسبته ؛ ويقول فى ذلك وليم شارب إن المقطوعة « هى خير وسيلة للتعبير عن خاطر شعرى منعزل عن غيره تعبيراً موجزاً محدوداً » ؛ وتقتضى طبيعتها أو يقتضى النجاح فيها أن يكون التعبير قوياً رائعاً يجمع إلى عمق الفكرة وجمالها بلاغة اللفظ وإشراقه ، كل أولئك فى إيجاز لا يخل بالمعنى المراد . وما أجمل ما وصف به روزتى المقطوعة وهو من الشعراء الذين أحبوها وبرعوا فيها فى القرن التاسع عشر ، قال « إن المقطوعة هى تمثال لحظة » وهذا التعبير القوى الجميل هو من قبيل ما يجب أن تبنى منه المقطوعات القوية أو التى تتسم بالنجاح ؛ ومن هذا ندرك أنها عمل فنى يتطلب قدراً كبيراً من البراعة الفنية والطاقة الشعرية ، وحسب الشاعر أنه يقيم تمثالا فى لحظة ولن يكون التمثال جديراً باسمه وبالغرض منه إلا إذا حملك على الإعجاب به والشعور تلقاءه بما تشعر به تلقاء كل عمل فنى من روعة الفن وجلاله .

(1) تكون على هذا النحو إذا رمزنا للقافية بحروف (ابب ا ابب ا)

(2) (ج د هـ ج د هـ)

والمقطوعة ضرب من الشعر الغنائى ، ولكنها تختلف عن القصيدة الغنائية الصغيرة بما ينبغى أن يلقيه الشاعر على غنائه من الوقار والاحتشام فلا يتبذل ولا يسف ولا يتلاعب بالألفاظ والأسجاع وألوان التورية وأشباهها مما يستساغ فى القصيدة العادية ولا يجوز هنا ، حيث ينبغى التأمل والتسامى كى يأتى التمثال معبراً عما يراد به التعبير عنه ، وماتقام التماثيل إلا للجليل من الأشخاص والأفكار .

وقد شبه أحد النقدة لحن المقطوعة بالموجة إذ يتدفق ويتجمع ماؤها فتمج به وترتفع ثم تهبط فتنساح ويرتد الماء ليعود ثانية إلى البحر ، والمقصود من هذا التشبيه أن المقطوعة وحدة غنائية ملتزمة الصورة واللحن فلا حرية فيها للشاعر أن يجرى ألحانه كيفما شاء وأن يتظرف ويتخلع وينطلق حسبما يتجه خياله ومزاجه وهواه .

وظهرت المقطوعة أول ما ظهرت فى الانجليزية فى ثنايا كتاب نشره أحد رجال الأدب واسمه تُتِل سنة ١٥٥٧ تحت عنوان « خليط من الأغانى والمقطوعات » ولما كانت مقطوعات كثيرة منها غفلا من أسماء أصحابها فليس يدرى من الرائد فى هذا الضرب من النظم فى الانجليزية ، على أن الإنجليز لم يتبعوا ما وضعه الإيطاليون ، فقد تصرفوا فيه وأتوا بصورة جديدة للمقطوعة وإن بقى عدد أسطرها كما هو فى المقطوعة الإيطالية ، وجاءت الصورة الانجليزية أيسر بناء من الصورة الإيطالية كما يتبين من طريقة التقفية فيها[1] ، وليس يشترط فيها أن يكون هناك تغير بين صدرها وخاتمتها وإن كان الغالب أن يحدث هذا التغير كما هو واضح من المثال الذى أثبتناه فى ذيل الصفحة ؛

(1) جعلوها على هذا النحو (ا ب ا ب ج د ج د هـ و هـ و ز ز) .

صحائف مطوية:

من أخلاق البحتري

للأستاذ محمد رجب البيومي

- ٢ -

ذكرتُ في مقالي السابق[1] أن أبا عبادة البحتري كان ذا حظوة سعيدة لدى الخلفاء، فقد أغدقوا عليه من الهبات الجزيلة ما اشترى به ضياعاً واسعة في ضواحي بغداد، وأخرى في منبج بالشام، ولكنه على رغم ثروته الطائلة كان يُضيِّق على نفسه فلا يلبس سوى الخز الرخيص ولا يأكل غير ما يقوم بحاجته الضرورية، وطبيعيٌّ أن يعامل أهله بهذه الكزازة الشحيحة، قال الحكم بن يحيى: «كان للبحتري أخ وغلام معه في داره فكان يقتلهما جوعاً، فإذا بلغ منهما الألم مبلغه أتياه يبكيان فيرمي إليهما بثمن أقواتهما مُضيِّقاً مُقتِّراً ويقول: كُلا، أجاع الله أكبادكما وأطال إجهادكما[2]»، وكان يأخذ أضيافه بنوع من القسوة لا ينبغي أن يَصْدُر من شاعر مرهف الإحساس رقيق الشعور، قال أبو مسلم محمد بن الأصفهاني الكاتب «دخلت على البحتري يوماً فحبسني عنده ودعا بطعام له فامتنعتُ من أكله وعنده شيخ شامي لا أعرفه فدعاه فتقدم وأكل معه أكلا عنيفاً فغاظه ذلك، والتفت إليَّ قائلا: أتعرف هذا الشيخ؟ فقلت: لا، فقال: هذا رجل من بني الهجيم الذين يقول فيهم الشاعر:

وبنو الهجيم قبيلة ملعونة حمر اللحى متشابهو الألوان
لو يسمعون بأكلة أو شربة بعمان أصبح جمعهم بعمان

قال: فجعل الشيخ يشتمه ونحن نضحك[1]».

ولقد كان غرام الوليد بالمال خيراً وبركة على شعره، إذ فتح له أبواباً من القول ضاعفت إنتاجه، فقد كان لا يرى عند خليفة أو رئيس سيفاً أو فرساً أو خاتماً أو قلماً إلا وصفه وصفاً بارعاً ثم استهداه منه؛ فإذا تمَّ له ما أراد أخذه فباعه وأضاف ثمنه إلى خزينته، والواقع أن هذا استجداء غير مشرِّف، لأن الهدية لا تباع بحال من الأحوال!!

وقد نشأ البحتري في عصر تفاخر فيه المترفون باقتناء الجواري والغلمان، باذلين في ذلك أنفس ما يملكون من ذخر وعتاد، فكان الوليد لا يفتأ يستهدي مَن يروقه من المُرْد الحسان في أسلوب جميل يجمل سامعه يمنح الهديّة في سرعة واغتباط، وهل نجد أرق من قوله في استهداء غلام يدعى ميخائيل:

فإن تَهد ميخائيل تبعث بتحفة تقضَّى لها العتبى ويغتفر الوزرُ
غرير تراءاه العيون كأنما أضاء لها في عُقب داجية فجرُ
ولو يحْتَلي في بضع عشرة ليلة من الشهر ماشك امرؤ أنه البدر
إذا انصرفت يوماً بعطفيه لفتةٌ أو اعترضتْ من لحظه نظر شزْر
رأيت هوى قلب بطيئاً نزوعه وحاجة نفس ليس عن مثلها صبر
تجاوز لنا فيه فإنك واجد به ثمناً يُغليه في مدحك الشعر
وألطف منه في الفؤاد محلّة ثناء تبقّيه القصائد أو شكر

وإذا كان البحتري قد هام بميخائيل لأنه وضيء الوجه حسن الصورة، فليت شعري بِمَ نعلل هيامه بنسيم؟ وقد كان روميًّا دميم الصورة كريه الرائحة! ألأنَّهُ وجد هذه الصفات تجعل صاحبه يفرّط فيه بسهولة، فكان يستهديه ويبيعه، ثم يستهديه ويبيعه، فهو إذن شرك «مُحكَم» يصيد به النقود،

(١) المنشور بالعدد (٦٩٠).
(٢) الأغاني

(١) مقدمة الديوان.

وكانت تنتهي بسطرين في قافية واحدة يكونان نغمتها الأخيرة.

وذاع هذا الوضع الجديد، وسميت مقطوعاته المقطوعات الانجليزية أو المقطوعات الشكسبيرية، فقد نسبت إلى شكسبير ولو لم يك مبتكرها لأنه خير من أجاد في بناء هذه المقطوعات ولأنه من أكثر الشعراء إنتاجاً فيه؛ ولقد كثر نظم المقطوعات كثرة ملحوظة في العصر الاليزابيثي وبرع فيه غير سبنسر وشكسبير نحو اثني عشر شاعراً، هذا فضلا عن عدد كبير لم يكن لهم مثل ما لهؤلاء من الإجادة وحسن السبك.

(يتبع) الخفيف

ومُلهم يقدح شاعريته ، فيصفه بما ليس فيه ، ويبالغ في التشوق إلى لقائه مبالغة تستهوى الأفئدة كأن يقول :

دعا عبرتى تجرى على الجور والقصد
أظن نسيما قارف الهجر من بعدى

خلا ناظرى من طيفه بعد شخصه
فياعجباً للدهر فقداً على فقد

خليلىّ هل من نظرة توصلانها
إلى وجنات ينتسبْن إلى الورد

وقدّ يكاد القلب ينقـدّ دونه
إذا اهتزّ فى قرب من العين أو بُعد

فلو تمكن الشكوى لخبّرك البكا
حقيقة ما عندى وإن جلّ ما عندى

فصبتك ممزوجاً بنفسى ولا أرى
لهم زاجراً يُنهى ولا حاكماً يعدى

أبا الفضل فى تسع وتسعين نعجة
غنىّ لك عن ظبي بساحتنا فرد

ومهما يكن من شيء فلقد مات نسيم في ميعة صباه ، وارتاح الناس منه ومن عاشقه المشوق !

على أن البحترى كان يغيّر فى سبيل المال مذهبه واعتقاده فهو لا يثبت على قول واحد ، فإذا مدح معتزليًّا كان معه ، أو سُنّيًّا جاراه فى رأيه ، قال إبراهيم بن عبد الله الكبجى : قلت للبحترى ويحك ! إنك فى قصيدتك « ألأفاق صب من هوى فأنيقا » تقول :

يرمون خالقهم بأقبح فعلهم
ويحرّفون كلامه المخلوقا

فهل صرت معتزليا قدريًّا ؟ فقال : كان هذا دينى فى أيام الواثق ثم نزعت عنه فى أيام المتوكل ! فقلت له : هذا دين سوء يدور مع الدول[1] » .

وإذن فالوليد لا يهتم بغير المال . مهما غيّر رأيه واستجدى أصحابه ، وعنّف أضيافه ، وقتّر على نفسه وأهله كما تقدم فى صدر هذا المقال ، وذلك كثير ! !

* * *

بقى أن نتحدث عن علاقة الوليد بزملائه الشعراء ، وهى فى جلّها غير مرضية ، فقد نشأ فى عهد نبغ فيه المُعلمون من أبطال الشعر وقادته ؛ فكانوا يتراكضون فى ميدان فسيح ، فَمَنْ حاز قصب السبق كانت له الشهرة المستفيضة ، والصيت الذائع ، وهذا تنافس شاق ترك فى نفس الوليد أثره الواضح ، فأبو تمام مثلا كان لا يستحق منه غير المدح الجزيل ، فقد أخذ بيديه فى بادئ أمره ، وقرّظه للعامة والخاصة ، وواصل تعريفه بالناس ولولاه ما أكل الخبز — كما يعترف بذلك البحترى — ولكنه لم يرع له هذا الجميل ، فهاجمه بعد موته ، وقال لولده أبى الغوث « إنه ما مات حتى أصنى من الشعر ، وقد سألتُ ابن الأعرابى عنه فقال : إن كان شعره شعراً فجميع ما قالته العرب باطل » بعد أن كان يقول فى حياته « إن نسيمى يركد عند هوائه ، وأرضى تنخفض عند سمائه

ونود هنا أن نلفت الأنظار إلى قصة روتها كتب الأدب عن مبدأ تعرفه بأبى تمام ، وخلاصتها أن البحترى قد مدح أبا سعيد محمد بن يوسف بقصيدة :

ألأفاق صب من هوى فأفيقا ؟
أم خان عهداً أم أطاع شفيقا

وكان أبو تمام حاضراً فنسبها إلى نفسه ، وصدّق جميع من فى المجلس ، فجعل البحترى يقسم بالله أنها له ، إلى أن استحيا أبو تمام ، فقال : الشعر لك يا بنى ولكنى ظننت أنك تهاونت موضى فأقدمت على الإنشاد بحضرتى تريد بذلك مضاهاتى ، ... ونحن نقول إنها قصة مكذوبة نجل أبا تمام أن يصدر عنه ما ذُكر بها ، سواء رواها البحترى أم سواه ، لأن حبيباً كان ذا مذهب مشهور فى القول حتى إنك لتعرف قصيدته من أول بيت تسمعه ؛ فلو أنه ادّعى ذلك ما صدّقه أحد فى دعواه ، لخلوّها عن بيت واحد تشمّ منه رائحته ، ولا سيما وجميع من فى المجلس يعرفون جيداً من هو أبو تمام ! وإلى أى حد ينزع .

أما ابن الرومى فقد جرّ على البحترى من البلاء ما أقلق باله وأزعج خاطره ، ذلك لأنه كان مولعاً بهجاء من يعرف ومن لا يعرف من الناس ، فخاف الوليد على نفسه منه ، وطلب من سعيد بن الحسن الناجم أن يجمع بينهما فى مجلس ، وما إن تم ذلك حتى نشأت بينهما صداقة وليدة ، ولكن البحترى عاد فهجّن شعر صاحبه على ملأ من الناس ، وما إن شاع فى ذلك

(١) الوشح .

حتى انفجر ابن الرومى كالبركان الهائج يقذف الحمم على رأس الوليد . فهجاه مرات عديدة ، ولم ينس أن يتعرض إلى شعره فيُبيّن رأيه فيه بوضوح حين يقول :

قُبحاً لأشياء يأتى البحترى بها ... من شعره الغث بعد الكدّ والتعب
عبد يغير على الموتى فيسلبهم ... حر الكلام بجيش غير ذى لجب
وقد يجئ بخلط فالنحاس له ... وللأوائل ما فيه من الذهب
يعيب شعرى وما زالت بصيرته ... عمياء عن كل نور ساطع اللهب
الحظ أعمى ولولا ذاك لم نره ... للبحترى بلا عقل ولا أدبِ !

إلى آخر ما قال .

هـذا وقد هاجم على بن الجهم بدون ذنب جناه . فقد ورد على المتوكل على الله من البادية فأعجب الخليفة بخشونته وبسط له جناح عطفه ، وما زال به حتى دمث طبعه ، ورقت معانيه فأتى فى شعره بالمرقص المطرب ، ولكنّ الوليد لم يطق ذلك من المتوكل ، فانبرى يهجو ابن الجهم هجاء مُرًّا ، وكان علىّ قصير الباع فى السِّباب فلم يستطع الصُّمودَ أمام غريمه ، فتزيد عليه البحترى مُوجّهاً جُلّ هجوه إلى ما تحت ثيابه ! وكان الأولى بالوليد أن يترفع عن هذه الناحية المقيتة ، ولكن هذا ما كان ! على أن للبحترى فيه هجاء قد خلا من الفحش الصارخ . فكان جيّد المعنى ، رائع السّبك ، يدل على تفكير قوى وشاعرية ثرّة ، كأن يقول :

يا قذىً فى العيون يا غُلّة بـ ... ـين التراقى يا حرارة فى الفؤاد(1)
يا طلوع العذول غب صفاء ... يا غريماً أتى على ميعاد
يا ركوداً فى يوم غيم وصَيْف ... يا وجوه التجار يوم الكساد
خلّ عنّا فإنما أنت فينا ... واو عمرو أو كالحديث المُعاد
امض فى غير صحبة الله ما عشـ ... ـت مُلقى فى كل فجّ ووادى
يتخطى بك المهامه والبيد ... دليلٌ أعمى كثير الرقاد
خلفك الباتر المصمّم بالسيـ ... ـف ورجلاك فوق شوك القتاد

كما أن من الغريب أن الدور الذى مثّله البحترى مع أبى تمام قد مثّله مع دعبل الخزاعى ، فكان فى حياته يرفع شعره إلى درجة عالية ، وما سمع بموته حتى بدّل رأيه فيه ، فقال لمن سأله عنه « إنه يدخل يده فى الجراب ولا يقول(1) شيئاً » ولعله كان يخاف من لسانه السليط !

(1) كذا فى الديوان ولعلها (يا جمرة فى الفؤاد) كيلا ينكسر البيت .

ومهما يكن من شىء فإن حبيباً ودعبلاً أقربُ إلى نفس البحترى من ابن الرومى وابن الجهم ، وهذا يرجع إلى تقدمهما فى السنّ من جهة ، وعطفهما عليه من جهة أخرى ، فليت الوليد قد حبس لسانه عنهما حتى نذكره مع الذين يحفظون الجميل !

***

وبعد فأخشى أن أكون قد أغضبت عشّاق البحترى بهذا الإلمام السريع . فأنا أعترف كما يعترفون ببراعته الفائقة ، وخياله الرائع ، وديباجته المشرقة ، ولكنى أعترف أيضاً بسلاطة لسانه ، وقلة وفائه ، وشح نفسه .

« ومن ذا الذى يُعطى الكمال فيكمل ! » .

محمد رجب البيومى
(الكفر الجديد)

(1) الموشح أيضاً .

رباعيـــات عثمان . . . !

للأستاذ عثمان حلمي

كم جبانٍ من الخيال يراعُ   هو فى نفسه الجرىء الشجاعُ
فإذا جـــدّ أى أمرٍ تبينـ   ـتَ جزوعاً خانت قواهُ الطباع
كيف أضحي وجه العبوس كوجه الـ   ـطفلِ هشاً والقلبُ وهو شعاع
هكذا تأخذ المظاهرُ بالأ   باب أخذاً ويستقيم الخداع

هكذا ما استقام فى الأرض ظلُّ   أو تمزّى فى ظلها المستظلُّ
ما بنوها أقل ميناً ولا الأر   ض على المين من بنيها أقلُّ
معدنٌ واحدٌ فلا ترج ما ير   وى الصدى من كذابهم أو يُبل
وتبسّمْ ولا تملَّ فإن الـ   ـعاقل المستنير من لا يمل

أيما أبصرته مقـــلة رأى   باطل فى بصـــائر الفهماء
فارح فى الحياة نفسك ما اسطعـ   ـتَ بما تستطيعُ من إغضاء
ما على الأرض لو تأملت خيرٌ   لك من لقمة وجرعة ماء
وسوى ذاك باطلٌ أى بطلٍ   وعناءٌ ما بعده من عناء

أى حق ما لابسته الظنون   ليت شعرى فأين أين اليقينُ
الذى كان ليس يدريه حيٌّ   ومحال إدراكُ ما سيكون
حُـلُمٌ هــذه الحياة على الأر   ض وسرٌّ لا ينجلى مكنون
ذلك السرُّ ليس يجـــلوه للأحـ   ـياء — لولا الضلال — إلا المنون

كل نفس لها لدى الفكر حق   فالذى خلته هو الحق — حق
والذى خاله سواك هو الحـــ   ـق ، فمن منكما لعمرى أحق
شدّ ما فى رأييكما من خلاف   هو غربٌ وأنت فى الرأى شرق
ليس من يعرف الحقيقة فى الخلـــ   ـق برأىٍ ما فى ثناياه خرق

فعلامَ الجدالُ والاضغانُ   وإلامَ الحقـــود والطغيانُ
نحن مهما تباين الرأى فينا   واختلفنا فأصلنا الانسان
ما جرى فى عروقنا من دماء   أو حوتْ فى صميمها الأبدان
واحدٌ ذلك التراب إذا ما   حللته الأحداث والأزمان

كل حىٍّ فى الأرض أسعد حالا   من بنى آدم وأسمى مثالا
فالحمار الذى حسبناه أشقى الخلـ   ـق منّى ومنك ، أنعم بالا
فهو أنّى اغتدى على الأرض لم يجـ   ـن على نفســه بخطء وبالا
ومع العقل يا ابن آدم تزدا   د لعمرى حماقة وضـــلالا

نهض العلمُ بابن آدم نهضاً   فسمى يبتغى سوى الأرض أرضا
ترك الأرض بعد أن دوّخ الأر   ض وجاب السماء طولا وعرضا
وارتقى فيه كل شىء ولكن   بقيت نفسه كما هى فوضى
وتقضى بعقـــله كل نقص   غير نقص بنفسه ما تقضى

هذه النفس يا أخى كيف تصفو   إن حواها جوٌّ من الشر صرف
هى إبليس لو فطنت وفيها   ملَك حائر على الخير يهفو
وهى وحش من الوحوش ونسر   يجتاح عـــلى النجم يرف
لم يهذّبْ من القرون طوايا   ها فظلت من ضعفها تستخف

ملك النسل أمرها والجوع   فهى طفل على الدهور رضيعُ
أينما أيقظا هواها فـــلا ينـــ   ـفع فيها التثريب والتقريع
هكذا قام فى غريزته الأصـــ   ـل وقامت على الأصول الفروع
ما استطاع الإنسان حدّ هواها   لا ولا حدّ شرّها مستطيع

عجز العـــلم والنهى والدين   والردى دون نقصها والسنون
فتأمـــل أيان كنت وأنّى   شئت فالضعف جاثم والشجون
وفنون من الخصاصة والتعـــ   ـس وجمٌّ من الشقاء فنون
ودمٌ فى براءة مهـــراق   وغريم من كل شرٍّ مصون

يا لهـــا من حقيقة تتوارى   خجلا والنفوس منها حيارى
فإذا ما تحجبتْ أسدل الميـ   ـن على وجهها البغيض ستارا

وإذا ما تكشّفت لم ير البـصر فيها يراه إلا صغارا
كم يرى النفس كيف لطخها الطيـن؟ فجنّت حماقة وسعارا

كلنا لائم فأين الملـوم أين منا الأريب أين الحكيم
فالتمس للنفوس ما اسطعت من عذ ر فما في نفوسنا المعصوم
وتقبّل ما ساء منها وما سـرّ بقلب ما أثقلته الهموم
هكذا كانت النفوس فلا يحـزنك منها صحيحها والسقيم

لو تراني والشر يطغى أمامي ودموعي يطغى عليها ابتسامي
لو تراني عجبت لي كيف أمضيت حياتي في راحة وسلام
فتأمل مع ابتسامك في عصـري وكيف انقضت به أيامي
لو تأملتها كفتك كثيراً من تجاريب سادر متشام

كلما زاد بالحياة اهتمامي واشتغالي زادت بها آلامي
وتبينت كلما مرّ يوم أيّ يوم حقيقة الأيام
فالتجاريب علمتني أن تذ عن نفسي فيها لغير مرامي
والقيود التي فُرضن على الأحيـاء فيها قويلن باستسلامي

والسلام الذي أراه أمامي كم تبينت فيه عكس السلام
غير أني على مرارة سخري لم أبح في انتقاده بملام
هذه حكمة الحكيم جناها عقله من تتابع الأعوام
من يُرد هذه الحياة جحيما جاء من نفسه لها بضرام

أصبحت تشبه الحمامة نفسي
فهي تضحى على الهدوء وتمسي
حسبها السعي للقليل من الرز ق وحسبي الرضى به والتأسي
ثم حسبي أن لم أرق ماء وجهي لابن أنثى من ذي ثراء وبأس
وأرى في الرضى أماناً من الهم وبرءاً من كل غمّ ويأس

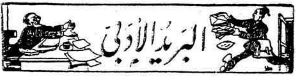
ولقد رُضتُ في العواطف قلبي وتقلبتُ بين بغض وحبّ
ثم أصبحت لا أودّ ولا أقـلي ولا يستقيم للعطف لُبّي
كل همي أن أبصر الخلق عن بُعـد على مسرح الخليقة قربي
ساخراً من مشاهد تتوارى بين سهل من الأمور وصعب

ليس للحبّ والقلى أسبابُ أدركتها النفوس والألبابُ
حيّر العلم كل عقل ودون الـعلم عن حيرة القلوب حجاب
ربّ قلب أحبّ نفساً أساءتـه ومن أحسنت ببغض تثابُ
ذاك أمرٌ مثل النية خاف جهل الشيب سرّه والشبابُ

كل ما في حياتنـا أوهام إن خبرت الحياة أو أحلام
فاسأل الغيبَ عن حقيقة دنيا نا تجبك النجوم والأجرامُ
وسل الكائنات عن منشأ العقـل ومأوى النهى يجبك الرغام
واعتصم يا أخي بعجزك إن الـعجز فيه إذا ضللت اعتصام

كم سؤال لا ينتهي وجواب لم يكن في هداك فصل الخطاب
فتبرّمتَ بالحيـاة ولم يـ ردك عقل إلى سواء الصواب
ما الذي يستطيع عقلك أن يفـهم مما اختفى وراء الحجاب
ولعمري ما الأرض في الكون إلا ذرة في خضمّه الصخـاب

عثمان حلمي



طه الراوى

بعد أن كتبتُ الكلمة التى حملت إلى قراء « الرسالة » الخبر المغمّ ، والنعى الكارث ، نعى فقيد الأدب العظيم الأستاذ طه الراوى جاءتنى هذه « الرسالة » من الأستاذ حسن حبشى مدرس التاريخ بمدرسة المعلمين العالية ببغداد ، وكنت حمّلته بطاقة إلى الأستاذ الكبير رحمه الله ، فقابله قبل وفاته بيوم واحد .

وهى أسطر قيمّة فى أنها تتحدث عن الأستاذ فى آخر حياته ، وتحمل إلى أصدقائه من أواخر نفحاته .

قال الأستاذ حبشى :

« ما كدت أبلغ عاصمة الرشيد حتى توجهت يوم السبت إلى الأستاذ طه بك الراوى وكنت قد بعثت ببطاقتكم إليه مع الأستاذ جميل سعيد ، وقد رحّب بى الرجل أجمل ترحيب ، وسألنى أن أحدّثه عنكم ، إذ هو مشتاق إلى الوقوف على أخباركم ، وقال إنه يعتب عليكم فى أنكم لا تجيئون العراق ، مع أنه قد ألحّ عليكم من قبل ، وكان حاضراً المجلس الدكتور مصطفى جواد . وأنبأنى أنه سيكتب إليكم .

ولكن العجيب يا أستاذى أن هذا الأديب الكريم كان ممتلئاً صحة ، وكانت دلائل العافية بادية عليه ، لا تلمح به أثراً من جهد أو تعب ، ولكن ما انقضى اليوم الثانى حتى وافانا نعيه فكان الرزء فيه عظيما . وأى خطب للأدب والدين فى العراق أجل من أن يختطف الموت طه الراوى وقد كان ملء السمع والبصر ، وكانت جنازته جنازة دلّت على مكانته ، فقد شيعه كبار القوم ببغداد ، وعارفو فضله وأدبه ، على الرغم من أن المدة بين نعيه وبين تشييعه إلى لحده لم تتجاوز خمس ساعات .

فإن يكن قد كتب إليك فذلك آخر ما كتب ، كما أن رسالتك التى حملتنى إيّاها كانت آخر ما تسلّم ، ولا أستطيع يا أستاذى أن أصوّر لك مبلغ حبّه لك مما بدا فى حديثه معى ومع سائر زواره فى ذلك اليوم ، وإنى لأرجو أن يفسح الله له فى جنانه بقدر خدمته للأدب والعروبة والدين » .

من صميم الحياة :

القاضى الفاضل الأستاذ على الطنطاوى من بقايا السلف الصالح ، يرسل إلينا من آن لآخر آيات فيها العظة والاعتبار بأسلوب رشيق وقصص ممتع ، وفيها أيضاً أثارة من قلم أستاذنا الرافعى طيب الله ثراه .

ساق إلينا فى « الرسالة » رواية عن شاب مستقيم الخلق والدين عهد إليه بالتعليم فى مدرسة ثانوية للبنات ، ثم انتهى به فساد بعض التلميذات إلى الاستقالة من المدرسة ؛ ولى على الكاتب الفاضل ملاحظات :

١ — تغلب عليه روح التشاؤم فيما يكتب ، ونحن فى عصر نهوض أو فى عصر انقلاب اجتماعى قد نسيء وقد نحسن ، فنحن فى حاجة إلى من يروضنا ويبعث فينا روح التفاؤل بأسلوب يهز النفوس هزاً لتنشط إلى السير قدماً فى طريق الفلاح والنجاح ، ويحملها على الاعتراف بالخطأ فتصفو من عيوب المجتمع وتسلك سواء السبيل .

٢ — لقد قدّم لنا بطله فى مدارس البنات شاباً ضيق الأفق ضعيف الحيلة أشد حياء من العذراء ، ثم صوّر تلميذته فى صورة داعر تعشق معلمها من غير مقدمات ... وليتها فعلت كما قال شوقى :

نظرة فابتسامة فســلام فكلام فموعد فلقــاء

وما هكذا طبائع الأشياء ، وما كذلك مدارس البنات !

٣ — كثيراً ما تتغلب الفكرة والخيال على الأستاذ الكاتب فيفوته الواقع فى قصصه : (فهى فتاة من أنبل الأسر تسرع وراء معلمها فيعف عنها ثم تكتب له :

وإذا رأيتك لا تكلمنى ضاقت على الأرض والأفق)

وما كان لها أن تخجل وتمرض عن معلمها بعد أن صدّ عنها وأعرض ، حتى هجمت عليه فى منزله كالوحش الضارى لتهتك عرضه

لا — يا أستاذ — لقد شط معلمك شططاً بعيداً . ولعلى أصدقك — وقد كنت فى ماضى حياتى معلماً بمدارس البنات — فهذه المخاوف التى استولت على ذهنك كنا نتصورها ، أو قريباً منها ، حتى إذا وجدنا أنفسنا فى هذا الوسط أحسسنا أن هؤلاء البنات بناتنا والمعلمات أخواتنا ، وزال هذا الخوف الأسود من مشاعرنا ، وصارت الحياة عادية ، وهذا شأن سائر المعلمين فى مدارس البنات

فرفقاً بالناس وحنانيك ، وإنصافاً — يا حضرة القاضي — فالأمر إن شاء الله على ما تحب بفضل القدوة الصالحة والتهذيب الصحيح أولا فلتغلق مدارس البنات والسلام

حسنين حسن مخلوف
المفتش بوزارة المعارف

تحية قدوم :

[من الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين إلى الأستاذ أحمد أمين بك بمناسبة قدومه من أوربا] :

سعدت بمقدمك العباد يا خصب أذهان البلاد
الشرق محتفل القلو ب بكم وإن حال البعاد
بشرى تناقلها البلا د تناقل النغم المعاد
يسرى شذاها حاملا أملاً إليها في ازدياد

أحمد الزين

مناظرة هادئة

اطلعت بالعدد ٦٩٤ من مجلة « الرسالة » الغراء على المقال القيم بقلم الأستاذ الكبير على الطنطاوى . وإنى وإن كنت من (الرجعيين) أمثال الأستاذ الكبير ، إلا أنى أريد أن أنصف النساء والرجال أيضاً فأقول : إن النساء لم يجرمن ولم يذنبن ، (وطالب القوت ما تعدى) ، فموضوع النساء كموضوع الرجال تماماً ، ينحصر فى غريزتين اثنتين : وهما المحافظة على الذات والمحافظة على النوع ، وبعبارة أصرح الحاجة إلى الطعام واللباس والغريزة الجنسية ، وكان الزواج يكفى المرأة هاتين الحاجتين ؛ إلا أن الشبان فى هذه الأيام — تبعاً للتصور الفكرى والمادى — أرادوا أن تكون زوجاتهم على علم يتفق وثقافتهم ، كما رأوا أن الزواج عبء ثقيل لما يتبعه من تربية أبناء وتعليمهم وعلاجهم فأرادوا أن تكون لزوجاتهم ثروة تعينهم .

واضطرت البنت إلى أن تتعلم ، أو اضطر أهلها إلى تعليمها ، واستتبع التعليم حتما السفور ، ثم اضطرت الفتاة إلى أن تعمل لتكوّن لنفسها ثروة يطلبها الرجال !

وكان لا بد من أن تتطور أفكار الفتاة تبعاً لثقافتها وقدرتها على الكسب ، فرأت لنفسها الحق فى شيء من الحرية والاستقلال وهو أمر — إذا لم يتعد حدوده — لا يتنافى مع الدين ولا مع الشرف ولا مع حقوق الزوجية !

وفى فترة انتظار الزوجة المتعلمة الغنية اتصل الشاب ببعض المتهتكات — اللائى كانت المشكلة الاقتصادية أيضاً هى السبب الرئيسى فى سقوطهن — فاستمرأ المرعى ووجد الأمر أسهل من الزواج

وظنت الفتاة المتعلمة أن الشبان يفضلون المظاهر الخلابة ، فأرادت أن تتقرب إليهم ببعضها فنفروا من زواجها ! فماذا تصنع ؟!

كما رأت أخوات لها تزوجن رجالا ابتزوا أموالهن وجروا وراء شهواتهم وملاذهم ، بل طلقوهن وهربوا من النفقة ! فأصبحت هى أيضاً تخشى الزواج !

ومن هذا ترون أن المشكلة أشد تعقيداً من أن ينفع فيها لوم المرأة ، والمرأة وحدها . إنها مشكلة الجوع والحرمان — المادى والمعنوى — مشكلة العصر الحاضر كله ، والذين وضعوا أسسه ونظمه هم الرجال لا النساء . . فما ذنب المرأة ؟ !

الشاب يحب أن يتزوج فتاة مثقفة محتشمة ، والفتاة تريد أن تتزوج رجلا يرعاها ولا يظلمها ، ولكنهم جميعاً يخشون المستقبل ، ولا ضمان لهم ، فلا التعليم مباح لأبناء الفقراء ، ولا العلاج ميسر للمرضى ، ولا العمل مكفول للعاطلين والعاطلات !

فليس التعليم إذن ولا السفور مسئولين عن هذه التبعة الثقيلة ، ولو كانت الفتاة جاهلة ومحجبة وحرمت الزواج ، لما كانت الحال أحسن ، بل تكون أسوأ ، لأن الجاهلة لا تجد ما يشغلها ، وكل ممنوع محبوب ومطلوب !

صحيح أنه يوجد فى التعليم والاختلاط أخطاء وضحايا ، ولكن العلاج ممكن ببعض التنظيم والتهذيب ، فالفضيلة أسهل من الرذيلة التى لا يلجأ إليها الإنسان إلا مضطراً لسوء الظروف أو سوء التربية

إن الزمن يتطور ، والنظريات تتغير ، وإن التيار جارف شديد لا يمكن اعتراضه ، ولكن يمكن توجيهه إلى الخير ، إذا صلحت النيات وقويت العزائم

والمشكلة الرئيسية مشكلة اقتصادية — كما أوضحنا — فإذا أراد أولياء أمورنا حلها ، فعليهم أن يوفروا للرجال والنساء حاجتهم من العيش والزواج بكرامة واطمئنان ، ليوفروا التعليم للفقراء ، والعلاج للمرضى ، والعمل للعاطلين ، ليكفوا الناس شرور الفقر والجهل والمرض !

وبغير هذا (فصاحب الحاجة أرعن) ، ولا فائدة من اللوم ولا من الكلام !

فؤاد السيد خليل

الكتب

دعوة فى وقتها :

الرســـالة الخالدة . . .

بقلم الأستاذ عبد الرحمن عزام باشا
الأمين العام لجامعة الدول العربية

عرض وتعليق

للأســـتاذ عبد المنعم خلاف

— ١ —

دين وســـياسة

هذا الكتاب إن شئت قلت هو كتاب دين كتب بقلم سياسى مفكر عارف بآفاق الحياة البشرية ، له بأكثر الأمم والأديان والعلوم والمعارف والحوادث العالمية والقومية خبرة نادرة ، فلست تجد فى كتابه الذى نحن بصدده تلك العقلية النمطية المقيدة التى تواجه القارئ فى أكثر مايعالج المسألة الدينية من كتب .

وإن شئت قلت هو كتاب سياسة كتب بقلم رجل هو فى أعماق نفسه وظاهر حياته رجل عقيدة وفضيلة وسمو ، يرى الحياة السياسية لن تكون على شىء غير الخداع والكذب وحب الغلب واللعب بالشعوب والأفراد إن لم تؤسس على العقائد السامية التى يستمدها العقل والقلب من التعلق بتلك الحقيقة الأولى العليا وهى الإيمان بالله عز وجل واستمداد الضمير مما يفيضه سبحانه على الكون من قيم الحق والخير والعدل والرحمة والجمال والنظام وغير أولئك من عزائم الإحسان التى توحى بأن تكون وجهة الناس خدمة الحياة البشرية جميعها بدون نظر إلى ما بين الناس من فروق الجنس واللغة والدين والطبقات ، والسعى المخلص للتوفيق بين الأمم ودفعها لخدمة الحضارة والعلم ومقاومة عوامل التفريق والتنازع فى مجالات الكسب المادى .

صوت متوقع من الشرق

والصوت الذى يعلو فى هذا الكتاب كان لا بد أن يرتفع الآن من الشرق العربى مع أصوات الدعاة فى العالم ومع نهوض الجامعة العربية برسالة « الأمة الوسط » التى يلتقى لديها الشرق والغرب لقاءجميلا ، ليجلوهذا الصوت وجهة رسالة الله الواحدة الخالدة التى تنقلت بشعلتها يده تعالى مع تنقل البشرية وتطورها التاريخى حتى استبانت معالمها التاريخية على أيدى أربعة من هذه « الأمة الوسط » هم إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد .

وكان لا بد لهذا الصوت أن ينطق عن هذه الرسالة بلسان هذا العصر ويوضح منطقها بأسلوبه ويبين عن آرائها فى الحضارة الروحية التى لا بد منها أولا لتوطيد أسس الحضارة المادية فى القلوب والعقول قبل إقامتها فى المجالات المادية .

وقد رأينا دعاة السلام فى الغرب يعالجون مشكلات العالم بأسلوبهم وحسب تكييف حياتهم ومواضعات بيئاتهم ، مثل ماقعل (وندل ويلكى) و (هنرى ولاس) و (ويلز) وغيرهم . وما كان لسكان الشرق الأدنى صاحب الرسالات الفاصلة فى توجيه الحضارات الروحية والمادية ، والماهد لها فى قديم التاريخ وأوسطه ، والجامع لأطراف إنسانية الشرق والغرب حيث نزل إلهام الله ووحيه على رسله وأنبيائه فى رسالات لا تزال هى المسيطر على أرواح أعظم جماهير الأمم المظيمة للآن . . وما كان لهم أن يتركوا الناس يتخبطون فى التماس الهدى وحل مشكلات الفكر والعيش دون أن يرتفع فيهم صوت يذكر الناس برسالة الله الخالدة ويعلن عما فيها من هدى قديم جديد .

البحث عن غـــد

والغربيون يبحثون عن غد يشرق عليهم ضحاه ، وقد خرج روادهم منذ الحرب العالمية الأولى يبحثون عن ذلك الغد فى كل مكان حين أحسوا ظلمة المادية تخنق أمسهم ويومهم وتتراكم على منافذ حياتهم الروحية فتحجب عنهم أضواء الهدى وتخنق حياة الوجدان والضمير وتطارد طمأنينة النفس إلى الحياة وإلى قيم الحق والخير فيها . . .

غير أن الموجة المادية كانت قد وصلت إلى ذروتها من الظلام والطغيان على الفكر الغربي بحيث لم يستطع الباحثون عن السلام أن يصدوا من طغيانها وظلامها ، فانطلق سيلها الجارف الهدار حتى طم على حياة الغرب والعالم كله فأغرقه بفلسفة البحث عن « الذهب الأسود » و « الفحم الأبيض » وأحرقه بنارها مع ما جمع من الحديد والفولاذ وأدوات المتاع والزينة والخيلاء والجشع والاستعلاء ... ، وإذا بأوربا موئل الحضارة المادية تشق بحضارتها وتدمر بوسائل قوتها حتى تصبح خاوية على عروشها لايطمئن إلى الحياة فيها سكانها وهجرها عشاقها كما تهجر الفيران السفينة حين تشفى على الغرق ... وإذا الحقيقة الخالدة تتجلى من جديد ، وهى أن الحياة الانسانية إذا لم تقم على الطمأنينة والسلام وعقائد الخير وانسجام الإنسان مع ما أراده الله فى الطبيعة ، فهى إلى فناء وزوال فى غدها مهما غنيت فى أمسها وحاضرها !

نعمة تستحيل إلى نقمة

وهذه الحضارة نعمة عظيمة لا يكدر صفوها إلا الطيش والجشع بينها ؛ لأنها حضارة جعلت للانسانية قدرة على تحقيق أحلام السيطرة والتغلب على كثير من قوى الطبيعة ، وكشفت للبشر عن مدى قدرتهم التى صارت لا يقاس بها ما كان لآلهة الخرافة عند القدماء من قدرة على التكوين والتخريب . فلماذا يصرون على الحروب والخصام بعد أن صار فى حروبهم من الهول والدمار ما يسحق جذور الحياة نفسها ، وبعد أن وضح لهم أن الأرض دار واحدة لهم جميعاً وأن خيراتها كافية لأن ينعم بها الجميع ويتمتعوا ما وسعتهم القدرة على المتاع ؟!

إن ذلك طيش وسفه يجب أن ينهض لمقاومته العصبة ذوو القوة من المفكرين والمربين ودعاة السلام فى الشرق والغرب وأن يصدعوا بذلك ، كل فى محيطه ووطنه والعالم . .

وهذا ما أراده عزام باشا حين أخرج بحوث هذا الكتاب الذى لا شك فى أنه ضوء عريض سيكشف للعالم جميعه مدى ماعند وارثى « الرسالة الخالدة » من فهم وإدراك وعلاج لمشكلات الفكر والعيش والسلم والحرب والاجتماع ، وما لديهم من استعداد عظيم للمشاركة فى إقامة حياة كريمة بين الناس جميعاً ؛ ومدى ما فى طبعهم من سماحة تؤهلهم أن يكونوا بحق « الأمة الوسط » لا فى المركز الجغرافى وحده ، بل فى المركز الفكرى كذلك

مسألة المسائل

والمسألة الدينية هى أعظم مسائل الحياة قيمة وتشويقاً وإثارة للجانب السامى فى النفس البشرية وللتفكير والرجاء والرغبة والرهبة ، وقد كانت ولا زالت محور بحوث العقول المفكرة وعقول الجمهرة ، لأنها تتصل بأعماق الفطرة ويترتب عليها قيمة الحياة وقيم الحق والخير فيها ، ومعرفة المصدر والغاية منها ، وما برحت « ما نحن ؟ وما الكون ؟ ومن أين ؟ وماذا وراء الطبيعة ؟ وما هى الغاية ؟ » أسئلة خالدة تثيرها القوى المفكرة فى كل فرد ، وهى موجهات الحياة ومكيفاتها ، تضل الجماعة البشرية أو تهتدى حسب توفيقها فى الإجابة عليها . وهذا الكتاب يعالج الحياة الإنسانية ومشكلاتها بتثبيت جذور هذه المسألة الدينية وتفريع فروعها فيتمشى بذلك مع طبيعة الشرق واتجاهاته من قديم ، فالشرق دائماً يعالج حياته المادية بالاستمداد من خالق الوجود وواهب الحياة ، ويقيم علاقات الاجتماع على أسس من علاقات الناس والكون بالله . بينما الغرب من قديم كذلك يتمشى مع عقليته المادية ، فهو دائماً الباحث المادى الرهين بالمحسوسات المستوحى جفاف الأرقام ...

ولذلك كان المزاج الشرقى واسع الرحاب برحابة ما يتصوره من عالم الكماليات الإلهية وراء هذه الطبيعة ، طليقاً فى أحيان كثيرة من القيود المادية التى تحبس الخيال وتربطه بالأرض ، يأخذ الماديات لالعبادتها وتأليهها ولكن للتعلق بسبب أسبابها .

الحاجة إلى حضارة الروح

والدعوة الدينية هذه فى حاجة ماسة إلى الحديث الدائم عنها وخصوصاً فى هذا العصر المادى ، بأسلوب هذا الكتاب الذى رأى المسألة الدينية أكبر معين لبناء الحضارة المادية على أوتاد ثابتة من الإيمان والإحسان ، فاستعان بها أعظم استعانة واستقى نظرياتها وأفكارها لتطبيقها على التاريخ الحى الذى يحياه الناس الآن ، ليريهم أن منشأ ضلال الحياة الغربية هو ترك الاستعانة والاعتماد على الهدى المجرب من هذه المسألة .

وقد ثبت أن من الخير المؤكد للناس أن يحكموا بحكومة الوجدان والضمير من داخل نفوسهم قبل أن تحكم أجسامهم وظواهر أعمالهم بالقوانين ، لأن حكومة الوجدان راعيها الله المطلع فى كل حين على خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، بينما حكومة الأجسام لا ترى إلا ما فى الشوارع ولن تستطيع أكثر من هذا ... ولن تقوم حكومة الوجدان إلا فى ظلال الدين الصحيح الكفيل بإقناع الناس فيما بينهم وبين أنفسهم بقيم الحق والخير والفضيلة ، وبقبح الباطل والشر والإثم والجريمة .

الفكر والسلطة

والكتاب مثل واضح لما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الفكر والضمير والسلطة حتى يكون « فن الحكم » — وهو أعظم فنون الحياة — قد استكمل أدواته فى نفوس الحاكمين والمحكومين

والعلاقة بين الفكر والسلطة هى مشكلة الحضارة فى هذا العصر ، إذ أن المفكرين المؤمنين العالمين بسير الحياة بالأحياء والساكنين فى قمة العلم والخلق لا يزالون بمعزل عن حكم الناس ، قد تركوهم للسياسيين المحترفين والسماسرة والدجالين واللاعبين بالشعوب المنقطعين عن العلم والخلق ، ولا هم لهم إلا الثروة المادية والبطش والخيلاء والغلبة على الأعداء ...

والذين يعرفون المؤلف يشهدون فى إجماع أنه من نوابغ المفكرين المؤمنين السياسيين العمليين والآمليين فى آن واحد . ولذلك وفق غاية التوفيق فى أن يكون كتابه كتاب تربية وتهذيب ودين وسياسة وإصلاح اجتماعى ، وفقه فى العلاقات الدولية ، ومعالجة أسباب المشكلات العالمية ، ووضع نظام عالمى جديد .

فهو كتاب من الكتب المتفردة التى يخرجها عمالقة الفكر والخلق الذين يلتقى فيهم العقل والقلب ذلك اللقاء المنشود المحبب الجليل ، ليفرقوا بها أمراً حكيما من أمور باطلة ، يضعونه على طريق الانسانية فى مرحلة من مراحل تاريخها ، فيكون مناراً يضىء مسالك الخطى حين تختلط الطرق وتضل الاتجاهات ويحتاج الناس إلى صوت يقول لهم : من هنا الطريق ...

المدخل

ودعونا الآن نلج إلى الكتاب من أبوابه الستة ذات الفصول الثلاثين لنتعرف إلى أمهات مسائله فى إلمامة خاطفة ونظرة عابرة إن فاتها التعرف إلى الدقائق فلن يفوتها التعرف إلى الجلائل :

الكتاب كما يتضح من عنوانه « بحث فى رسالة الله الواحدة الخالدة على مدى الزمن ، واقتباس من هداها فى الاجتماع والسياسة والحرب والسلم والعلاقات الدولية ، لإزالة أسباب الاضطراب العالمى وإمداد الحضارة بسند روحى فى إقامة نظام عالمى جديد » وقد أوضح المؤلف فى مقدمته أن الذى دعا إلى تناول موضوعاته هى حالة الشذوذ والاضطراب أثناء الحرب الأخيرة والرغبة فى الكشف عن أسباب هذا الاضطراب العالمى ، ومحاولة إيجاد علاج له بعد أن تبين أن هذا العلاج غير ميسور فى هدى الدعاوى المبادىء السارية فى هذا القرن ، والتى أوحت بها المدنية المادية الحديثة . فلا بد إذاً من النظر بجد لالتماس الهدى فى غيرها بعد أن ظهر عجزها فى تنفيذها الواقعى بأوروبا وأمريكا .

فهل هذا العلاج فى الرسالة الخالدة التى تعاقب رسل الله على الدعوة إليها وجاء بها إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد .

وقد تولى الكتاب الإجابة على ذلك ، وهو إن كان أفاض فى التعرض لشرح وجهة النظر الإسلامية باعتبارها آخر تطور للرسالة الخالدة « فإنما قصد بذلك إلى التعاون والقربى لا التنابذ والتفرقة وأن يجد الناشىء الجديد المتعطش إلى المعرفة والطالب للهدى من المسلمين وغير المسلمين ، مادة للتفكير وسبيلاً إلى رأى عالمى مستقيم بعد هذه الحروب المدمرة التى أثارت اضطراباً لا نظير له » واضعاً نصب عيون المسلمين وغير المسلمين قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ».

وهو يهيب بالجيل الناشىء من العرب « أن يكونوا أهلا لحمل هذه الرسالة بمدون الحضارة والعلم بالسند الروحى الذى لا بد منه لعالم جديد متضامن متعاون على تثمير خيرات الأرض متجه نحو دولة عالمية واحدة تباركها يد الله ويرعاها رضاه » .

(يتبع) **عبد المنعم خلاف**

فهرس مفصل

لكتاب « فى أصول الأدب » الذى ظهر هذا الأسبوع

المحاضرات

المقالات